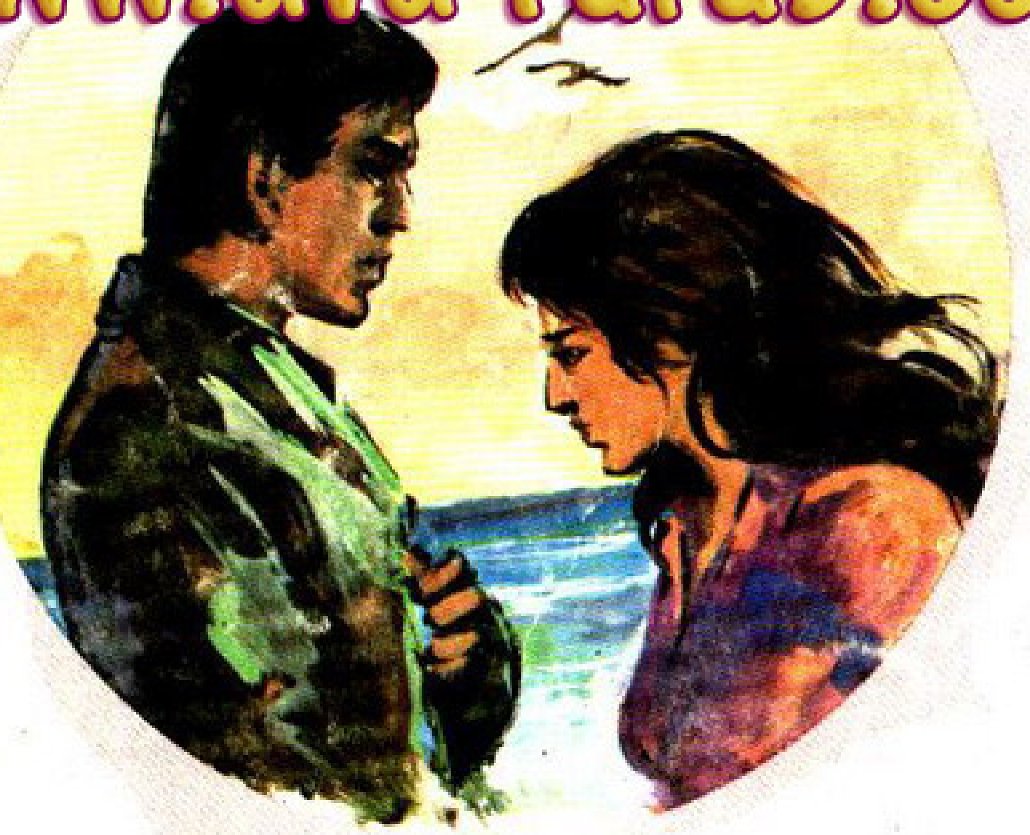


زهور
١٧





د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

المرآة السوداء

يا دموع الزهـر يا لهب ونـار
أنصفى ، جاء العذاب بلا اختيار
أظلمت مرآة حبى فى انكسـار
حطمت ضوء المحبـة والفخار
صرت نسياً فى طريق الانـدثار
زينت أزهـار حزنى كل دار
أين قلبى ؟ فى هناء أم مـرار؟
فى ظلام الليل أم وضح النهار؟
فى ضياع أم دمار أم فـرار ؟
فى هـوان أم جحيم الاندحار
لست أدرى فيم يغنى الانتظار
قبل أن تمضى الحيـاة إلى قـرار

(نبيـل)

١ ـ اللقاء ..

« (أكرم) .. (أكرم) » .

أطلق المهندس (حسنى) ذلك الهتاف ، وهو يلوّح بذراعه فى حرارة ، وينطلق عبر الطريق المزدحم بالسيارات فى وقت الظهيرة ، غير مبال بأبواقها الغاضبة المستنكرة ، ولا بصرير السيارة ، التى توقفت على قيد خطوة واحدة منه ، ولا بسباب قائدها ، الذى حاول إفراغ ثورته وغضبه ، وأعصابه المتوترة فى صراخه الساخط ، قبل أن يعود إلى سيارته ، استجابة لأبواق السيارات التى تقف خلفه ، وينطلق بها فى حنق واضح ..

لم يبال المهندس (حسنى) بكل ذلك ؛ لأنه لم يشعر به ..

كانت حواسه كلها تتركز عند وجه شاحب ، لشاب وسيم نحيل ، يسير شارداً ، بخطوات سريعة ،

دون أن يلتفت خلفه ، أو يميل بعينيه السوداوين الحزينتين يمنة أو يسرة ..

وفى خطوات قافزة ، أقرب إلى العدو ، لحق (حسنى) بالشاب ، ووضع يده على كتفه ، وهتف فى لهاث يموج بالانفعال :

— (أكرم) .. كيف حالك يا صديقى ؟

التفت إليه الشاب ، وحدَّجه بعينين شاردتين ساهمتين لحظة ، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة فاترة ، وهو يغمغم :

— كيف حالك أنت يا (حسنى) .

شعر (حسنى) بعطف وإشفاق شديدين ، وهو يتأمل فى ملامح صديقه الذابلة ، وعينيه اللتين فقدتا تألقهما ، وعاد يربت على كتفه ، وهو يغمغم فى حنان :

— ماذا أصابك يا (أكرم) ؟ .. إنك تبدو شخصاً مختلفاً تماماً ، عن ذلك الذى رأيته منذ شهر واحد ، قبل سفرك لتنفيذ مشروع الإسكندرية .

شرد (أكرم) لحظة أخرى ، وغمغم فى صوت اعتصر الألم فى قلب (حسنى) .

— شهر واحد .. يا إلهى !! .. لقد خلته دهراً .

أحاط (حسنى) كتف صديق عمره فى انفعال ، وكأنه يحاول حمايته من حزنه ، وهتف به فى ودٍّ خالص :

— ماذا حدث يا (أكرم) ؟ .. إننى لم أرك أبداً على هذا النحو .

أطرق (أكرم) برأسه ، وغمغم فى حزن :

— دوام الحال من المحال يا صديقى .

ساد الصمت بينهما لحظات ، و (حسنى) يتفرَّس وجه صديقه فى جزع وإشفاق ، ثم تأبط ذراعه ، وقال فى لهجة تجمع بين الحزم والحنان :

— هيَّا بنا إلى منزلى ، أدعوك لتناول الغذاء ، وسنتحدث عن مشكلتك .

بدا لحظة وكأن (أكرم) سيعترض ، ولكنه لم يلبث أن سار إلى جوار صديقه فى صمت ، واستسلام ، دون أن يتبادل أحدهما مع الآخر كلمة واحدة ، حتى

وصلا إلى منزل (حسنى) ، وهناك استقبلتهما والدة (حسنى) فى حنان دافق ، وصافحت (أكرم) فى لهفة وحرارة ، توحى بقوة الصداقة بينه وبين ابنها الوحيد ، ولاح فى عينيها لحظة جزعها من ذلك الذبول الذى أصابه ، ولكن نظرة متفهمة تبادلها الابن وأمه ، جعلتها تخفى مشاعرها فى أعماقها ، وتسجن سؤالها الملتهف فى أعماق قلبها ، وتفتعل المرح ، وهى تقول :

— سأعد لكما كوبين من الشاى الساخن ، حتى ينتهى إعداد الطعام .

شكرها (أكرم) بكلمات خافتة ، وترك صديقه يقوده إلى حجرته ، وهو يلتزم نفس الصمت والاستسلام ، حتى أغلق (حسنى) باب الحجرة ، والتفت إلى صديقه ، الذى جلس شاحباً على مقعد بجوار الفراش ، وخيَّم الصمت عليهما لحظة أخرى ، قبل أن يسأله (حسنى) فى صوت أجش ، مفعم بالانفعالات :

— حسناً يا (أكرم) .. ماذا حدث ؟

ظل (أكرم) صامتاً بعض الوقت ، يُحدِّق فى

أرضية الغرفة فى شرود ، وإن لم يخف تألُّق الدمع فى عينه عن (حسنى) ، الذى تضاعف جزعه ، وتعاظمت لوعته ، وتصاعد تساؤله ، وإن لم يحاول أن يقطع صمت صديق طفولته ، الذى رفع إليه عينيه الدامعتين بعد لحظات ، وسأله فى صوت بدا — لدهشته — هادئاً :

— هل قرأت شيئاً عن انفصام الشخصية يا (حسنى) ؟

كان السؤال مباغتاً عجيباً ، ولكن (حسنى) سيطر على دهشته بسرعة ، واستنتج بسرعة أن لهذا السؤال التفسير الأكبر لما يعانيه (أكرم) ، فأجابه فى لهجة ، حاول أن يضفى عليها بعض الهدوء والتماسك :

— بعض المعلومات التى تنشرها الصحف فحسب ، ورواية أو روايتين عن هذا المرض النفسى الشهير .

بدا صوت (أكرم) مفعماً بمزيد من الحزن ، وهو يسأله :

— وهل تعتقد أن المصاب بهذا المرض يمكنه أن يحمل فى أعماقه نقائض المشاعر ؟

عقد (حسنى) حاجبيه ، وهو يتأمله فى حيرة

وتساؤل ، مما جعل (أكرم) يردف فى حنق عجيب :
– أعنى هل تحمل نفسه الحنان والقسوة فى آن واحد ؟ .. الرقة والخشونة ؟ .. الجفاء والعذوبة ؟ .. الجمال والقبح ؟ .. هل يمكن هذا يا (حسنى) ؟
هزّ (حسنى) رأسه فى حيرة ، وتمتم :
– أعتقد ذلك يا (أكرم) ، فانفصام الشخصية يعنى أن يحمل المرء شخصيتين متناقضتين ، كأن تكون إحداهما لزاهد ، والأخرى لفاسق مثلا ، أو لرجل قانون ومجرم .. تماماً مثل قصة (دكتور جيكل ومستر هايد) ، التى كتبها (روبرت لويس ستيفنسن) ، والتى تصوّر فيها اختراع عقار ما ، ينزع من النفس أعماقها الشريرة و ..
أوقفه (أكرم) بإشارة من يده ، وقال :
– أرجوك يا (حسنى) .. لست هنا لمناقشة ندوة أدبية ، وإنما ..
حارت الكلمات على شفتيه ، وانتقلت حيرته إلى عينيه ، فبتر عبارته ، وعاد يطرق برأسه أرضاً ، محاولا

إخفاء دموعه مما دفع صديقه إلى سؤاله فى حنان وإشفاق :
– ماذا حدث يا (أكرم) ؟
تنهّد (أكرم) فى عمق ، وكأنه قد قرّر أخيراً الإفصاح عن سره ، وإلقاء حزنه على لسانه ، ثم قال دون أن يرفع عينيه إلى صديقه :
– لقد أحببت .
رفع (حسنى) حاجبيه فى دهشة ، وهتف :
– أحببت ؟! .. وهل فعل بك الحب كل هذا ؟
أومأ (أكرم) برأسه إيجاباً ، وغمغم فى ألم :
– لقد كدت أجن .
جذب (حسنى) مقعداً ، وجلس إلى جوار صديقه ، وربّت على كتفه فى حرارة وحنان ، وهو يهمس :
– أخبرنى ماذا حدث يا (أكرم) .. منذ البداية .
هزّ (أكرم) رأسه لحظة ، وقال :
– نعم يا (حسنى) .. سأقص عليك كل شىء .
وبدأ يروى قصته ..

* * *

٢ ـ على شاطىء البحر ..

بدأت قصتى عندما قررت الشركة الهندسية ، التى أعمل بها ، إنشاء مجموعة من الفيلات على شاطئ العجمى ، وبيعها فى مزاد علنى ، ولما كنت من أقدم المهندسين العاملين بالشركة منذ إنشائها ، فقد كلفتنى الإشراف على المشروع الجديد ، ومنحتنى كل السلطات الكافية ، بالإضافة إلى بدل انتقال كبير ، جعلنى لا أتردّد لحظة واحدة فى قبول التكليف ، فأعددت حقائبى ، وسافرت فى اليوم التالى إلى الإسكندرية ، وأنا أحلم بالنجاح فى هذا المشروع ، وبما سيستتبعه ذلك من إظهار لكفاءتى ، واحتمالات الترقية والتفوق ، والوصول إلى مركز أرقى داخل الشركة ..

ولم أكد أطأ أرض العجمى ، حتى بدأت العمل فى همة ونشاط وحماس ، وقد اتخذت قراراً بإنهاء المشروع قبل الموعد المحدود ، وانتقل حماسى إلى العاملين ، فسار

العمل على خير وجه ، وتضاعفت آمالى ، وأحلامى بالنجاح ..

وبعد مضى ثلاثة أيام تقريباً على بدء العمل ، كنت أجلس فوق الرمال ، ألتقط بعض أنفاسى بعد عمل شاق ، وأرقب قرص الشمس ، الذى بدأ يميل إلى الغروب ، وأعماقى كلها تفيض بالنشوة ، أمام هذا المشهد الطبيعى الرائع ، الذى لا يملّ الإنسان رؤيته أبداً ، حينما رأيتها ..

لم أصدّق عينىّ فى البداية ..

ظننتها وهماً صنعته الظلال ، التى يلقيها قرص الشمس المحتضر ..

خلتها خيالا انبعث من أعماق ، ليكمل بهاء الصورة وروعتها ..

ولكنها كانت أجمل من الخيال ..

كانت فتاة رائعة الجمال ، بالغة الرقة ، تتهادى فى خطوات ناعمة رقيقة ، وكأنها لا تمس الأرض بقدميها ، وثوبها البنفسجى ، الذى يتماوج مع نسمات البحر ،

يمتزج بألوان الشفق فى لحظة الغروب ، ليكمل شعرها الأسود الحريرى ، المتطاير خلف رأسها ، لوحة الطبيعة وجمالها ..

لم أتبين وجهها من المسافة التى كنت أنظر إليها منها ، ولكننى كنت موقناً من أنه لا يقل جمالا عن رقتها ونعومتها ..

وتابعتها ببصرى ، وهى تسير بمحاذاة الأمواج ، التى تمس أقدامها فى نعومة ، وكأنها تخشى خشونة أملاحها عليهما ، والفتاة تنقل قدميها فى رقة ، وكأنها تحنو على الأمواج ، وتستنكر تحطيمها بخطوات سريعة..

ولا يمكنك أن تتصور روعة المشهد ، حينما أصبح ذلك الملاك بينى وبين قرص الشمس ، الذى تضاعف حجمه ، واحمرّ لونه ، وهو يغوص فى مياه البحر ..

لقد أحاط بها قرص الشمس كإطار رائع ، وحجب ملامحها كلها لتبدو كلوحة سوداء (سليويت) ، بشعرها المتطاير ، وثوبها المتماوج ..

أقسم لك أننى لم أحب اللون الأسود ، بقدر

ما أحببته فى هذه اللحظة ، وأنا أتطلع إليها فى انبهار ، وقد خلبت رقتها لبى ..

ولقد ألقى قرص الشمس بظلها إلى مسافة طويلة ، حتى بدا ظل شعرها المتطاير ، وكأنه تحت أقدامى ..

وكدت أقدم على عمل أخرق عجيب فى هذه اللحظة..

كدت ألقى بنفسى على ظلها ، وأشبعه تقبيلا ..

ولكن رصانتى القديمة ، وبقايا من قدرتى على التفكير ، منعانى من ذلك وسمرانى مكانى ، وأنا أحدّق فى تلك الفاتنة ، التى توقفت عن السير ، وأدارت رأسها إلى قرص الشمس ، وكأنها تكحّل عينيها بجمال اللحظات الأخيرة للغروب ..

أما أنا فقد نسيت الغروب ..

نسيت الطبيعة .. نسيت نفسى ..

لم أعد أرى سواها ، وقرص الشمس يغوص ويغوص ، حتى اختفى تماماً ..

وهنا استدارت الفتاة ، وسارت فى خطواتها الرقيقة الناعمة ، مبتعدة عن الشاطئ ..

وخفق قلبي فى انبهار ..

لقد كانت تبدو وكأنها تتجه بخطواتها إلى حيث أجلس ، وهى تنظر إلى موضع قدميها ، وتخطو فوق الرمال برقة عجيبة ، حتى ليخيّل إليك أن أقدامها لن تترك آثاراً فوقها ..

وأخيراً رأيت ملامحها فى وضوح ..

كانت ضئيلة الجسد ، رقيقته ، تتألق بشرتها الوردية فى وجهها المستدير ، ويبدو حاجباها الرفيعان المتناسقان كإطار رائع ، فوق أهدابها السوداء الطويلة ، وفمها كثمرة فراولة ، رقيق ، دقيق الشفتين ، صغير ، أحمر كالدم ..

واختلج قلبي ، وأنا أدعو الله — سبحانه وتعالى — أن ترفع عينيها إلى وجهى ..

ولقد فعلت ..

كانت عيناها عسليتى اللون واسعتين ، رأيت فيهما رقة العالم كله ، وحنانه ، وخجله ..

فقد أربكتها نظراتى المتفرّسة ، ودفعت دماء

الخجل إلى وجهها الجميل ، فزادت فى جماله وبهائه ، وتوقفت لحظة فى ارتباك ، ثم عادت تخفض عينيها ، وتسرع الخُطا مبتعدة ، وأنا أتابعها ببصرى ، حتى رأيتها تغيب داخل فيلا مجاورة ، وتغلق بابها خلفها فى ارتباك وخجل ..

وشعرت بارتياح عجيب يغمرنى ؛ لأنها تقيم إلى جوار موقع العمل ..

هذا سيضمن لى رؤيتها كل يوم على الأقل ..

ولكننى شعرت أن رؤيتها وحدها لن تكفينى ، لا بد أن أتحدث إليها ، وأعرف عنها الكثير ..

لا بد أن أخبرها عن نفسى ..

عن عملى ..

عن حياتى ..

وشعرت فى تلك اللحظة أن القدر قد ربط بيننا ..

لست أدرى كيف ، ولكنه فعل ..

هذا ما حادثت نفسى به فى تلك الليلة ..

لقد حاولت أن أنام ، ولكننى فشلت ..

كان وجهها الجميل يملأ عقلى وخيالى ، ويمنع النوم من التسلل إلى أعماق ..

ورحت ألقى على نفسى عشرات الأسئلة ..

من أدراك أنها ستشعر نحوك بما تشعر به نحوها ؟..

ما أدراك أنها ليست ملكاً لرجل آخر ؟..

وما هو هذا الذى تشعر به نحوها ؟..

إن معرفتك بها لم تتعد لحظات ..

إنه انبهار فحسب ..

وظللت أتقلب فى فراشى طوال الليل ، وكأننى أرقد فوق جمر مشتعل ، إلى أن أشرق الصباح ، وقد استقر رأيى على التحدث إليها ..

وفى ذلك اليوم فتر حماسى للعمل تماماً ، فقد كنت أتطلع طوال الوقت إلى شرفة فيلتها ، مترقباً ظهورها ، وقلبى يرقص بين ضلوعى فى لهفة وأمل ، وتحوّل تراقصه إلى اختلاجة قوية ، حينما رأيتها تقف فى شرفة الفيلا ..

كانت تبدو أكثر جمالا ورقة فى ضوء الشمس ،

وكان شعرها الفاحم ينسدل على كتفيها فى نعومة ، وبدا ثوبها البنفسجى أكثر زَهْواً ، وتناسقاً على جسدها الضئيل ، ورأيتها تجلس على مقعد ، من مقاعد الشاطئ ، فى شرفة الفيلا ، ووجهها إلى البحر ، ثم تأخذ فى مطالعة كتاب صغير ، بدا وكأنه يجذب انتباهها تماماً ..

وترددت طويلا ..

كل حماسى للحديث معها تبخّر مع توترى ، حينما رأيتها ..

كنت أخشى أن تصدّنى ، إذا ما حاولت تجاذب أطراف الحديث معها ، وكنت أعلم أن صدها قد يحطم قلبى ، ولكننى فى النهاية استجمعت شجاعتى ، وسرت إليها ..

كانت ساقاى تتخاذلان ، وأنا أقترب من شرفة الفيلا ، ولكننى واصلت السير ، حتى أصبحت إلى جوارها ، فتنحنحت منبهاً إياها إلى وجودى ، والتفتت إلىّ فى دهشة ، ثم أسبلت جفنيها فى حياء صبغ بشرتها الوردية بالحمرة ، فأسرعت أقول :

— صباح الخير ..

غمغمت فى رقة ، وهى تبتسم ابتسامة رقيقة ، خلبت لـُبـِّى :

– صباح الخير .

غلبنى الصمت ، وأنا أتأمل فى وجهها ، الذى ازداد احمراراً وخجلا ، ثم قلت :

– اسمى (أكرم) ، مهندس مدنى ، ومسئول عن مشروع الفيلات الجديدة .

عادت تغمغم فى رقة :

– مرحباً بك .

شعرت بالحيرة بعد عبارتها ، فلم أكن قد أعددت ما أقول ، وشملنا الصمت لحظة خلتها دهراً ، ثم قالت فى رقة أعادت إلى نفسى الأمل :

– وأنا (نسرين) طالبة فى كلية العلوم ، فى السنة الثانية .

كانت هذه أجمل عبارة سمعتها فى حياتى كلها ، فقد كانت تعنى أنها توافق على تعارفنا ، وعلى استمرار حديثنا ، فسألتها فى مرح ، وأنا أحاول مدّ الحديث :

– ماذا تقرئين ؟

ابتسمت وهى تقول :

– رواية عاطفية جميلة .

سألتها فى اهتمام :

– هل تحبين الروايات العاطفية ؟

عاد وجهها يتخضب بحمرة الخجل، وهى تقول:

– أعتقد أن كل الفتيات يحببنها .

وبدأ بيننا أول حديث حول الروايات العاطفية ، وامتد إلى طبيعة العواطف ، ثم إلى مواضيع أخرى ، وأخرى ، وأخبرتنى عن عائلتها الصغيرة ..

عن أمها ، وأبيها الراحل ، وشقيقتها الوحيدة .. وأخبرتنى الكثير عن نفسها ، وأخبرتها الكثير عن نفسى ..

ومضى الوقت فى سرعة عجيبة ، حتى فوجئت بأمها أمامنا ، تتأملنا فى مزيج من الدهشة والحنان ، وأسرعت (نسرين) تعرّف كلاً منا بالآخر ، واستقبلتنى والدتها فى ترحاب ، ثم قالت فى حنان ذكّرنى بأمى :

– هل تناولت طعام غدائك يا بنى ؟ .. لقد أعددت صنفاً جديداً من الطعام سيروق لك بإذن الله .

ونبهتنى عبارتها إلى مضى الوقت ، وشعرت بالخجل ؛ لأننى أهملت عملى من الثامنة والنصف صباحاً ، وإلى الثانية ظهراً دون أن أشعر ، فأسرعت أعتذر فى لهجة مهذبة ، وصافحت الأم فى ود ، وحينما صافحت (نسرين) ارتجفت أصابعى وأصابعها ، وسرَت فى أعماق موجة دافئة عجيبة ، فهمست فى لهفة :

– سنواصل حديثنا فيما بعد .

ابتسمت فى خجل ، وإن لم يخل صوتها من الترحاب ، وهى تغمغم :

– بالطبع .

وتركتها وأنا أحلق فى سماء السعادة ، وأسبح فى بحار الهناءة ..

لقد ربط القدر بيننا حقًا ..

* * *

٣ – ونسج الحب خيوطه ..

لست أدرى كيف يحدث هذا ؟ ..

كيف يتسلل الحب إلى القلب ، وينسج خيوطه فى أعماقه ؟ ..

لا توجد قاعدة علمية واحدة للحب ، ولا حتى قانون واحد ، ولكن أحداً لا يمكنه إنكار وجوده ، أو رفضه ، فهو دائماً أقوى من الرفض والإنكار ، وأكثر وقعاً من نبض القلب ، وانتظام الأنفاس ..

ولقد عجز آلاف الأدباء والحكماء عن إيجاد قاعدة واحدة ، يمكن اتباعها للوقوع فى الحب ، لهذا قالوا عنه إنه أعمى ..

وهم مخطئون ..

الحب ليس أعمى ، ولكنه أكثر إبصاراً من العيون ..

فالمحب قد يرى فى محبوبه شيئاً لا يراه الآخرون ، تماماً كما ترى أجهزة خاصة ، الأشعة تحت الحمراء ، أو فوق البنفسجية ، فى حين تعجز العين العادية عن رؤيتهما ..

وهناك لغة للقلب ، تختلف تماماً عن لغة العقل ، وهذه اللغة هى الوحيدة المسموعة بين المحبَّيْن ، ولها القدرة على تغيير ملامحهما ، فالجميلة ترى الرجل الذى أحبته أكثر أهل الأرض وسامة ، فى حين يجمع العالم كله على أنه شديد الدمامة ، والعكس صحيح ، فالرجل قد يغرق حتى أذنيه فى حب فتاة ، ويصفها بأنها أجمل من وقعت عليها عيناه ، فى حين يضرب الآخرون كفاً بكف ، ويتساءلون فى دهشة عما يجده فيها من ملامح الجمال ، وينسون أن جمال الوجه هو أوهى أنواع الجمال ، وأن الزمن وحده يهزمه ، ويُذْبله ، ويقضى عليه بسرعة ، وأن أقوى جمال هو جمال الروح والنفس ..

المهم هو أننى لست أدرى كيف حدث هذا ..

كيف وقع كل منا فى حب الآخر ..

فبعد أسبوع واحد من لقائنا الأول ، وبعد لقاءات عديدة ، ومناقشات كثيرة ، كشف قلبى أنه غارق حتى أذنيه فى حب (نسرين) ..

لقد ظللت أفكر طيلة ذلك الأسبوع فى طبيعة مشاعرى نحوها ..

أهو انبهار بجمالها ؟..

أهو إعجاب برقتها ؟..

وترددت طويلا قبل أن أسأل نفسى :

ـ أهو الحب ؟

ولكن هذه الحيرة تلاشت تماماً ، ونحن نسير بمحاذاة الأمواج ، بعد أسبوع واحد من لقائنا الأول ..

كانت الشمس قد شارفت الغروب ، هذه المرة أيضاً ، وكنا نسير فى بطء ، ونتبادل حديثاً هامساً ، حينما توقفت وأشرت إلى قرص الشمس ، وأنا ابتسم قائلا :

ـ هل تعلمين بِمَ يذكّرنى غروب الشمس ؟

ـ بِمَ ؟

ـ بأروع مشهد شاهدته فى حياتى كلها .

ـ وما هو ؟

ـ ملاك من الجنة يتهادى على شاطئ البحر ، ويمتزج بقرص الشمس لحظة الغروب .

– أنت خيالى .

– بل .. كان ذلك حقيقة .

– مـتى ؟

– حينما رأيتك لأول مرة .

تخضب وجهها بحمرة الخجل ، وأسبلت أهدابها الطويلة فى حياء ، وإن رأيت ابتسامتها ، التى تشف عن فرحها ، ترتسم فوق شفتيها الجمليتين فى وضوح ..

وفى هـدوء ، ودون أن نتبادل كلمة واحـدة ، تسلل كفى إلى كفهـا ، واحتضنه فى حب وحنان ، واستكان الكف الرقيق فى راحتى ، وأعلن باستسلامه ، وارتجافته الدافئة موافقة صاحبته ومبادلتها إياى ذلك الحب ..

وسرنا فى صمت وهدوء ، وكفى يعانق كفها ، نخطو فوق الأمواج الهادئة ، ونسبح مع قرص الشمس فى حب وسعادة ، حتى وصلنا إلى فيلتها ، وهناك ظللنا نقف وجهاً لوجه طويلا ، قبـل أن تفلت كفها

من راحتى فى رقة ، ووجهها يزداد تخضباً وحياء ، حتى غمغمت أنا :

– إلى الغـد .

تمتمت فى صوت رقيق مختلج :

– إلى الغـد .

وأسرعت تقفز درجات سلم الشرفة فى حيـاء ، حتى اختفت داخل الفيلا ، وأسرعت أنا عائداً إلى مسكنى ، وأنا أكاد أطير فرحاً ، وأعماقى تردد فى سعادة هتاف حب :

أحبها .. أحبها .. أحبها ..

ملأت الكلمة مشاعرى ، وفاضت بها أعماقى ، حتى وصلت إلى المسكن الذى أعدته لى الشركة ، فاستلقيت على فراشى بملابسى ، وأخذت أتأمل سقف الحجرة ، وقد خيل إلىَّ أنه قد تحوَّل إلى بستان وارف ، تتراقص فيه فراشات السعادة ، وهى تعانق زهور الحب ..

لست أدرى كم استغرقتنى تلك الخيالات ، ولكننى أفقت منها على رنين جرس الباب ، فقلبت شفتىَّ فى

ضيق ، وأنا ألعن ذلك الزائر ، الذى انتزعنى من بستان عشق وخيالى ، وفكرت فى تجاهله ، لولا إلحاح طرقاته ، ورنين الجرس المتواصل ، الذى اضطرّنى إلى فتح الباب فى حنق ، ووقفت أحدّق فى الزائر بغضب، فقد كان أحد عمال الشركة ، وسألته فى حِدّة :

– ماذا هناك ؟

ارتبك العامل وهو يقول، مادًّا يده بورقة مطوية :

– معذرة لإيقاظى إياك من نومك يا سيّدى ، ولكن هذه البرقية وصلت على التو، وهى لا تحتمل التأجيل .

التقطت البرقية من يده ، وفضتها فى عجلة ، وعقدت حاجبى فى ضيق ، وأنا أقرأ كلماتها ..

كانت البرقية تؤكد ضرورة تواجدى فى القاهرة فى السابعة والنصف من صباح الغد، للضرورة القصوى، دون أن توضّح نوع هذه الضرورة ، أو خطورتها ..

ولم يكن أمامى إلا الإذعان ..

وأقلقنى الأمر جدًّا ، فقد كان الوقت متأخراً ،

حتى أنه من العسير إبلاغ (نسرين) بأمر هذا السفر المفاجئ ، الذى سيضطرنى لمغادرة الإسكندرية ، قبل أن تستيقظ هى من نومها ..

فكّرت فى ترك رسالة، ولكن الفكرة لم ترق لى، فهى تصلح فقط إذا ما كنا خطيبين، خاصة وأن والدتها قد تتسلم الرسالة ، وقد يدفعها ما تعنيه إلى منع (نسرين) من مقابلتى ..

وبعد تردد طويل ، وحيرة أطول ، قرّرت السفر والعودة فى اليوم نفسه ، مهما تكبّدْت من مشاق ، وبعث هذا القرار فى نفسى الارتياح ..

وسافرت فجر اليوم التالى ، ولم أكد أصل إلى القاهرة حتى واجهتنى مفاجأة جديدة ..

لقد كان سبب استدعائى يتعلق بوصول وفد أجنبي من خبراء المعمار ، وكان علىّ مرافقتهم طيلة ثلاثة أيام ، حتى يعودون إلى بلدهم ..

وانتزع القدر من عمر حبنا ثلاثة أيام ، وصورة (نسرين) برقتها وابتسامتها الخجلة الفرحة تملأ ذهنى

طوال الوقت ، ويخفق لها قلبى ، وأنا أنتظر عودتى إلى الإسكندرية ، وإلى حبى ..

وفى هذه الأيام الثلاثة ، التى حُرِمتُ فيها رؤية (نسرين) ، فاتحت أمى فى أمر خطبتى لها ، ولقد غمرتنى أمى بعشرات الأسئلة كعادتها ، وبدت لى أشبه بوكيل نيابة نشط ، وهى تحاصرنى بأسئلتها واستجواباتها الدقيقة ، ولكنها لم تلبث أن تخلت عن دور وكيل النيابة ، وعادت إلى طبيعتها كأم ، وطبعت قبلة حانية على وجهى ، وهى تقول فى حنان وفرح :

— بارك الله (سبحانه وتعالى) فيما اخترت يا ولدى .

ولا يمكنك أن تتصوَّر فرحتى حينما وافقت أمى ..

لقد كان ذلك بمثابة اعتراف شرعى بحبى ، ودفعة إلى الأمام لعواطفى ..

وعدت إلى الإسكندرية — بعد ثلاثة أيام — وأنا مفعم بالأمل والسعادة ، وكنت أتعجّل وصول القطار إلى هناك ، حتى أنعم برؤية (نسرين) ، بعد أن فرّقتنا

ظروف عملى ثلاثة أيام كاملة ، ومن المضحك أننى كنت ، طيلة جلوسى داخل القطار ، أميل بجسدى إلى الأمام ، وأتشبث بمقعدى فى قوة ، وكأننى أحثُّ القطار على الإسراع ، واختصار الوقت ..

ولم أكد أشم رائحة الهواء المشبَّع باليود ، والذى يميز جو الإسكندرية ، حتى عاد قلبى يخفق فى قوة ، وعادت أعماقى تتراقص فى سعادة ..

وكنت كطير حبيس ، أُطلِقتْ له الحرية ، وأنا أطأ رمال العجمى بأقدامى ، وأعدو فوقها إلى فيلا (نسرين) ..

وعلى بعد خطوات من الفيلا توقفت ، وأخذ قلبى يختلج ، ويختلج ، ويختلج ..

لقد كانت تقف هناك .. فى شرفة الفيلا .. ترتدى نفس الثوب البنفسجى ، الذى رأيتها فيه لأول مرة ، وشعرها الأسود الناعم يتطاير حول رأسها فى رقة وجمال ..

واقتربت منها فى لهفة ، وهمست وأنا أتعلق بحاجز الشرفة :

– حبيبى .. لقد عدت .

التفتت إلىَّ فى دهشة ، وحدَّقت فى وجهى لحظة ، ثم ابتسمت ..

لم تكن نفس الابتسامة الرقيقة ، ولا نفس العيون الحانية ..

واتسعت عيناى فى دهشة ، وتراجعت فى حيرة ..

لقد كانت ابتسامتها تفيض بالسخرية ، وعيناها تنطقان بخبث لم أر مثله فيهما من قبل ..

كانت تبدو مختلفة ، وهى تقول فى تهكم لاذع :

– حبيبتك ؟! .. يا لك من وقح !!

وارتجف جسدى فى ذهول ..

* * *



٤ ـ العقاب ..

تراجعت فى دهشة ملأت أعماقى ، وانتقلت إلى كل خليـة فى جسدى ، عبر عروق تحمل دماً جمده الذهول ، وحدَّقت فى وجهها مُنكراً مستنكراً ..

خيِّل إلىَّ لحظة أننى أمام مخلوقة أخرى غير تلك التى أحببت ..

وعدت أتفرَّس فى تلك الملامح التى عشقتها ..

نفس الوجه المستدير ، ذى البشرة الوردية ، والشعر الأسود الناعم الطويل ، المنسدل على الكتفين ..

نفس العيون العسلية ، والأهداب السوداء الطويلة ، والحاجبين المتناسقين الرفيعين ..

نفس الفم الرقيق الدقيق الأحمر الشفتين ..

نفس الملامح ، ولكن ..

توقف تفكيرى طويلا عند كلمة (لكن) هذه ، فقد كان هناك شىء يختلف ..

أين الابتسامة الرقيقة الخجول ؟ ..

أين العيون المفعمة بالحنان والرقة ؟ ..

لقد اختفى كل هذا ، وأصبحت هناك عيون ساخرة ، وابتسامة ماكرة ..

وفجأة برق بارق فى ذهنى ، وخيل إلىّ أننى فهمت سبب هذا التبدل ..

إنها تعاقبنى ..

تعاقبنى ؛ لأننى اختفيت عنها ثلاثة أيام ، دون أن أخبرها ، ودون أن أنذرها ..

لقد ظنت أننى أعبث بها ..

لقد أساءت فهمى ..

وقرّ ذلك الخاطر فى قلبى ، ومال عقلى إلى تصديقه ، فعدت أقترب منها ، وأقول فيما يشبه الاعتذار :

— (نسرين) .. صدقينى .. لقد اضطررت للسفر فجأة ، ولم أجد الوقت الكافى لأخبرك ، صدقينى يا حبيبتى .

مرة أخرى تألق ذلك البريق الساخر فى عينيها ، وهى تتفرّس فى ملامحى فى اهتمام وتغمغم فى لهجة تهكمية عجيبة :

— هكذا ؟ !

هتفت فى ألم :

— هذا ما حدث .. أقسم لك .

ظلت تتأملنى لحظة ، وكأنها ترانى لأول مرة ، ثم ابتسمت .

ولدهشتى كانت ابتسامتها جريئة ، أقرب إلى الوقاحة ، على نحو يخالف تماماً تلك الابتسامة الخجلى ، التى تعوّدتها ، وإن بدا صوتها هادئاً ، وهى تقول :

— هل تعلم أنك وسيم ؟

أدهشتنى عبارتها ، ولكنها أسعدتنى ، فقد كانت أول مرة تمتدحنى فيها (نسرين) ، ولقد وأد هذا دهشتى بسرعة ، وأيقظ حبى وعواطفى ، فمددت يدى إليها فى حنان ، ولم تتردد هى ، بل قبضت على كفى فى قوة ، وكأنها تخشى أن أفر منها ، وقالت فى جرأة :

— انتظر ، سنخرج لنتجوّل معاً .

تصاعدت سعادتى ، وهى تهبط فى درجات سلم الشرفة ، وتعود لتمسك كفى ، وتسير إلى جوارى ، وأنا

أتجه بها إلى الشاطئ ، حتى نشهد معاً غروب الشمس ، ونتبادل الحديث كعادتنا ، ولم نكد نلمس الأمـواج بأقدامنا حتى سألتنى فى اهتمام :

– ما اسمك ؟ .. أعنى اسمك بالكامل .

ضحكت وأنا أقول :

– لقد أخبرتك به من قبل يا (نسرين) .

ابتسمت فى خبث ، وهى تقول :

– لقد نسيته .

ضايقتنى عبارتها ، ولكننى أخبرتها باسمى مرة ثانية ، فابتسمت وهى تقول :

– اسمك ظريف يا (أكرم)، ماذا تعمل بالضبط ؟

هتفت بها فى حنق :

– ماذا أصابك يا (نسرين) ؟ .. أنت تعلمـين أننى المهندس المسئول عن الفيلات الجديدة ، المجاورة لفيلتكم ، ولقد أخبرتك هذا منذ أول لقاء لنا .

ضحكت فى استهتار ، وهى تقول :

– لماذا يحنقك هذا ؟ .. لقد نسيت .

توقفت عن السير بغتة ، وعقدت حاجبى فى ضيق ، وأنا أقول :

– (نسرين) .. كُفِّى عن أسلوبك هذا .

سألتنى فى لهجة أقرب إلى السخرية :

– أى أسلوب ؟

هتفت فى سخط :

– إنك تصرِّين على السخرية منى ، ومحـاولة تحقيرى ، انتقاماً لكرامتك الجريحة ، حينما تصوَّرت أننى فررت منك ، ولكننى أقسم أن هذا كان على الرغم منى ، ولن أحتمل أسلوب العقاب هذا مرة أخرى .

عادت تتفرَّس فى ملامحى مرة أخرى ، وعيونها تلتمع فى عبث ، ثم ضحكت ، وربَّتت على وجنتى فى نعومة ، وهى تقول :

– حسناً .. لا داعى للغضب ، لقد كنت أمزح .

قلت فى حِدَّة :

– إننى أكره هذا النوع من المزاح .

أطلقت ضحكة عابثة محيِّرة ، قبل أن تقول فى لهجة من يحدِّث طفلا صغيراً :

– لا بأس .. لن أمزح معك مرة أخرى .

وعادت تحتضن كفى بكفها ، وعدت أسير إلى جوارها على شاطئ البحر ، وكلانا صامت شارد . . هى عيونها تتطلع إلى الأفق ، وأنا أتطلع إلى قدميها .

لست أدرى لِمَ أثارت طريقة سيرها اهتمامى إلى هذا الحد ، فى تلك النزهة بالذات ..

لم تكن تسير بالأسلوب الرقيق ، الذى اعتدته فى نزهاتنا ..

لم تكن تحنو على الأمواج ، بل كانت تضربها بقدميها فى قوة ، فتحطمها ، وتنثر رذاذها على قدميها وقدمىَّ ..

وشعرت مرة أخرى أنها تختلف ..

وتوقفت ، وأوقفتها ، وأشرت إلى قرص الشمس الغارب ، وقلت فى همس :

– هل ترين الروعة ؟

مطت شفتيها ، وهى تقول فى استهتار :

– أية روعــة ؟

أجبتها فى لهجة حالمة :

– مشهد الغروب .

كنت أتوقع منها أن تشاركنى جمال المشهد وروعته ، إلا أننى فوجئت بها تضحك فى سخرية ، وتقول :

– الغروب ؟ ! .. إننى أشاهده يوميًّا ، حتى أنه أصابنى بالملل .

حدَّقت فى وجهها بدهشة عارمة وهتفت فى حيرة :

– ولكن يا (نسرين) ..

قاطعتنى فى استهتار :

– دعك من .. من مشهد الغروب هذا ، ما رأيك أن نسهر الليلة فى الكازينو ، ونرقص حتى منتصف الليل .

لم أصدِّق ما تسمعه أذنى ..

تصوَّرت أننى واهم ، وهتفت فى استنكار :

– نرقص ؟ ! .. ماذا دهاك ؟ .. إننى لا أحب الرقص ، ولا أجيده .

هتفت فى مرح :

- ستحبه حينما نرقص معاً ، وسأعلمك كيف تجيده .

قلت فى مزيج من الصرامة والحنَق :

- كلاّ يا (نسرين) .. كلاّ .

ضحكت فى سخرية ، ثم عادت تربّت على وجنتى ، وتقول :

- ألا تحب هذا المزاح أيضاً ؟

هتفت فى سخط :

- إننى أكرهه .

ثم أمسكت ذراعها فى حِدّة ، وقلت :

- ماذا دهاك هذه المرة يا (نسرين) ؟ .. إنك تبدين مختلفة .

سألتنى فى مرح :

- أفضل أم أسوأ ؟

قلت فى حِدّة :

- بل أسوأ .. لقد أحببت (نسرين) برقتها ،

وحنانها ، وخجلها ، فأنا رصين بطبيعتى ، وأكره كل أنواع الخلاعة والعبث .

حدّقت فى وجهى بغضب ، ثم أطرقت برأسها ، وبدا وكأنها تفكر فى عمق ، قبل أن تغمغم ، دون أن ترفع عينيها إلى وجهى :

- لقد ظننت أنك قد تركتنى من أجل ذلك ، فأردت أن أبدل شخصيتى من أجلك .

احتضنت كفها الرقيقة فى حنان ، وقلت فى حب :

- خطأ يا حبيبتى .. الإنسان لا يبدل شخصيته من أجل من يحب ؛ لأنه بذلك يخدعه ، ويضع نفسه فى إطار مخالف لطبيعته .

غمغمت فى صوت باك :

- هلا سامحتنى ؟

هتفت فى حرارة :

- إننى أحبك يا (نسرين)، والمحب سريع الغفران .

ثم اقتربت منها ، وهمست فى حب :

- لقد أخبرت والدتى بشأننا ، ولقد وافقت .

رفعت إلىّ عينيها فى تساؤل ، وهى تغمغم :
— وافقت على ماذا ؟
ابتسمت ، وأنا أهمس فى سعادة :
— على زواجنا .
أدهشنى ذلك الانفعال ، الذى ارتسم فى عينيها ، إثر إجابتى ..
لقد كان أقرب إلى الغضب منه إلى الفرح ..
وظل كل منا يحدق فى عينى الآخر لحظة ، قبل أن ترتسم على شفتيها ابتسامة عصبية ، وتقول فى حِدّة :
— لا تتعجل .. لم يحن الوقت بعد .
هتفت فى حنان :
— ولماذا ننتظر ؟ .. إننى أعمل فى وظيفة مرموقة ، وبدخل ممتاز ، وأملك شقة أنيقة فى حى راق بالقاهرة و ..
قاطعتنى فى حِدّة :
— لم يحن الوقت بعد .
سألتها فى دهشة وألم :
— لماذا ؟

أجابتنى فى عصبية :
— لدى أسبابى .
أشحت بوجهى عنها فى ضيق ، فعادت تحتضن كفى ، وهى تقول :
— أرجوك يا (أكرم) ، لا تتحدث معى فى هذا الأمر مرة ثانية .
سألتها فى حنَق :
— هل ترفضين الزواج منى ؟
هتفت فى حرارة :
— بل إننى أتمناه .
ثم عادت تستطرد فى توسُّل :
— ولكن ليس الآن ، سأخبرك حينما أكون مستعدة .. أرجوك .
رَبَّتُّ على كفها فى حنان ، وأنا أغمغم :
— حسناً يا حبيبتى .. سأنتظر .. سأنتظرك حتى آخر لحظة فى عمرى .

* * *

٥ ــ حيرة قلب ..

رقدت فى فراشى طويلا ، دون أن يتسلل النوم إلى جفنى هذه الليلة ..

كنت حائراً ، متوتراً ، مرتبكاً ..

كان عقلى يحاول عبثاً البحث عن تفسير لتغير (نسرين) العجيب ..

كانت عاطفتى المشبوبة وهى إلى جوارى قد تراجعت وأنا وحدى ، وأفسحت لعقلى الطريق ليفكر فبدا لى ذلك التعليل ، الذى أخبرتنى به عن تبدلها واهياً متخاذلا ، فعلى الرغم من رغبتى فى تصديقه ، وجدت نفسى أستنكره بشدة ..

فقد كان هناك شىء أعمق من الرغبة فى إرضائى ، يختفى خلف ذلك التبدل ..

كان هناك شىء فى أعماقها هى ..

وأخذت أتساءل فى حيرة ، هل خدعتنى منذ البداية برقتها ؟ ..

هل كان حنانها وخجلها مجرد تمثيلية وهمية ؟ ..

ووجدت تساؤلاتى نفس الإجابة ، فمن المستحيل أن أخطئ أعماقها ..

كان الأمر محيراً للغاية ، وكأن هناك اثنين من (نسرين) فى جسد واحد ، إحداهما رقيقة حانية ، والأخرى عابثة قاسية ..

إحداهما تحبنى ، والأخرى تسخر منى ..

وأقلقتنى حيرتى ، وأرقتنى ، فنهضت من فراشى ، ونظرت إلى ساعة يدى ، فوجدتها تشير إلى الحادية عشرة والنصف مساء ، فعدت إلى ثيابى ارتديها ، وغادرت مسكنى أجول على غير هدى ، عسى أن يذهب نسيم الليل بحيرتى وقلقى ، وقادتنى قدماى إلى كازينو أنيق ، يموج بالأضواء والصخب ، فوقفت أتأمله لحظة ، وقد استعاد عقلى حديث (نسرين) العجيب عن الرقص والعبث ، ثم خطوت إلى داخله فى تردد ..

كانت هذه هى المرة الأولى ، التى تطأ فيها قدماى مثل هذه المنتديات ، إذ كانت دراستى ، وعملى فيما بعد ، ينتزعان منى كل الوقت ، حتى أننى لم ألهُ أو

أعبث فى مبدإ شبابى أبداً ، وحينما وصلت إلى الثلاثين ، فقدت الرغبة فى مثل هذا النوع من اللهو ، ولكننى فى هذه الليلة أردت أن أجرب ..

أردت أن أخوض تجربة جديدة ، علها تطفىء توترى ..

ولكن العكس هو الذى حدث ..

لم أكد أخطو داخل الكازينو ، حتى وصل توترى إلى ذروته ، وتفجر غضب هائل فى أعماقى ، وشعرت بالدماء تغلى وتفور فى عروقى ..

فهناك ، على حلبة الرقص ، رأيتها ..

رأيت (نسرين) ..

كانت تراقص شاباً رقيعاً ، يطيل شعر رأسه على نحو جعله أشبه بمطربى أوربا ، ويرتدى قميصاً زاهى الألوان ، وسروالا شديد الضيق ، وتتدلى من عنقه سلسلة ذهبية ضخمة ، تؤكد ثراءه ، وفساد ذوقه ..

وتسمّرت فى مكانى كالمذهول ، وانتابتنى رغبة قوية فى البكاء ، ولكننى ظللت صامتاً ، جامداً ،

كتمثال من الحجر ، فى حين كانت (نسرين) تضحك فى عبث ، وترقص فى رشاقة وانهماك ، حتى أنها لم تشعر بوجودى ، إلا بعد وقت طويل ..

كانت تدير رأسها فى حركات قوية ، مصاحبة للموسيقى ، وشعرها الأسود الناعم يتقافز حول رأسها كالإعصار ، حينما وقعت عيناها على عينى ..

والغريب أن ذلك لم يدهشها ، ولم يزعجها ..

لقد ابتسمت فى مرح ، ولوحت لى بكفها ، ثم عادت تواصل رقصتها المجنونة ..

وصرخت أعماقى فى ألم وغضب ..

وغلت دمائى ، وجرحت مشاعرى ، فاستدرت فى حِدّة ، وانطلقت خارج المكان ، وتركت لدموعى العنان ، وأنا أسرع الخُطا إلى الشاطئ ..

وهناك فاضت دموعى ، حتى بللت وجهى كله ، وأنا أجلس على الرمال ، متطلعاً فى شرود إلى البحر ، الذى غلفه الظلام ، وأخفاه عن عينى ، إلا من زبد الموج ، الذى يتكسر فى هدوء ، عند أطراف حذائى ..

كيف فعلت بى ذلك ؟ ..
كيف عاملتنى بهذا الاستهتار ، وتلك اللامبالاة ؟.
كيف خدعنى تظاهرها بالرقة ؟ ..
وأخذت فى تلك الليلة أسترجع الموقف كله خطوة خطوة ، وكلما أوغلت فى التفكير ، ازداد عجبى ، وازدادت حيرتى ، حتى قررت ، فى لحظة حنق ، إنهاء هذا الموقف كله ، والانغماس فى عملى ، وترك هذه العلاقة المشوبة بالغموض ، والشك ، والحيرة ..
والعجيب أن هذا القرار قد بعث الراحة فى قلبى ، حتى أننى نمت فى عمق هذه الليلة ، واستيقظت وأنا أشعر بنشاط عجيب ، فارتديت ثيابى فى سرعة ، وأسرعت إلى موقع العمل فى حماس ..
وتعمدت تجاهل (نسرين) والفيلا تماماً ، والانهماك فى العمل إلى أقصى حد ، وكان لهذا نتائجه الإيجابية بالنسبة للعمل ، فسرعان ما بدأت أعمدة الفيلات الخرسانية ترتفع ، قبل الموعد المحدود لذلك بأسبوع كامل ، وأرسلت الشركة مندوبها ، ليبلغنى شكر

المسئولين هناك ، وإعجابهم ، ووعودهم بالترقيات والمكافآت ، وزاد هذا من حماسى ، ومن انغماسى فى العمل ، حتى كان ذلك اليوم ..
كنت منهمكاً فى مراجعة بعض تصميمات التنفيذ ، حينما دخل أحد العمال إلى مكتبى ، وهو يبتسم ابتسامة لم أفهم مغزاها ، ويقول :
— هناك ضيف يطلب رؤيتك يا باشمهندس .
سألته وأنا أعيد عينىّ إلى التصميمات :
— أهو من مكتب القاهرة ؟
أجابنى فى لهجة لمحت فيها رنة الخبث :
— بل هو ضيف خاص .
قلت فى حِدّة دون أن أرفع عينىّ عن الأوراق :
— لا زيارات خاصة فى موعد العمل .
وفجأة ارتجفت الأوراق بين يدى ، وجف لعابى ، وتوقفت الدماء فى عروقى ، حينما سمعت صوتاً بالغ الرقة ، يقول :
— إنه أنا يا (أكرم) .

رفعت عينى ، وتطلعت إلى صاحبة الصوت فى دهشة ..

لقد كانت (نسرين) ..

(نسرين) الأولى بابتسامتها الرقيقة الحانية، ووجهها المتورِّد بحمرة الخجل ..

(نسرين) بجمالها ونعومتها وعذوبتها ..

وأفلتت الأوراق من يدى ، ونبض قلبى فى عنف ، وأنا أتطلع إلى وجهها الجميل ، الذى حطم مرآة كل الغضب ، والحنَق فى أعماق ..

وانتزعنى العامل من فيض مشاعرى ، وهو يقول فى تخابث ريفى :

— هل أذهب ؟

أجبته فى هدوء وشرود :

— نعم .

تضرّج وجـه (نسرين) فى خجـل ، حينما ابتسم العامل ابتسامة خبيثة ، قبل أن يغادر الحجرة ، ويغلق بابها خلفه فى إحكام ..

ووقف كلانا يتأمل الآخر لحظة ، ثم اندفعنا نحو بعضنا البعض فى آن واحد ..

احتضنت كفها فى حب ، واحتضنت كفى فى لهفة..

وامتزجت عيوننا بعضها ببعض فى حنان ، قبل أن تهمس (نسرين) بصوتها الرقيق الحالم ، المشوب بالخجل والحياء :

— كيف حالك ؟

ابتسمت ، وأنا أقودها إلى مقعد يجاور مكتبى الصغير ، وأهمس فى حب :

— كيف حالك أنت ؟

أطرقت بوجهها فى حياء ، وهى تبتسم فى خجل وسعادة ، وتهمس :

— لقد أوحشتنى .

همست فى حب :

— وأنت أيضاً .

ساد الصمت بيننا طويلا ، ثم غمغمت هى :

— إننى لم أرك منذ فترة طويلة .

ربّتُّ على كفها ، وكأنى أرجوها ألا تتحدث فى هذا الأمر ، فقد كنت أرغب فى نسيانه ، ونسيان مشهدها ، وهى تراقص ذلك الشاب المخنث ..

وكنت أشعر أنها صادقة فى رقتها ولهفتها هذه المرة وكان هذا يكفينى ..

وكم شعرت لحظتها برغبتى فى تكرار عرض زواجى منها ، ولكننى احترمت رغبتها فى عدم الحديث عن هذا الأمر ، فلزمت الصمت لحظة ، ثم قلت مبتسماً :

— أما زلت تقرئين تلك الروايات العاطفية ؟

ضحكت فى خجل ، وهى تقول :

— نعم .

ثم أردفت فى رقة :

— وأنت !! أما زلت تشاهد غروب الشمس؟

ضايقتنى عبارتها لحظة ، حينما أعادت إلى ذهنى سخريتها السابقة من ذلك ، ولكننى أجبت فى هدوء :

— نعم .. ومازلت أعشقه .

عاد الصمت يلفنا لحظة أخرى ، قبل أن تخفض (نسرين) عينيها ، وتقول فى خجل :

— لقد أوحشتنى رؤية الغروب .

وترددت لحظة ، قبل أن تردف فى همس :

— بصحبتك .

حدّقْت فيها لحظة بدهشة ، ثم غمغمت :

— ربما نشاهده معاً .

سألتنى فى صوت هامس خجل :

— متى ؟!

ابتسمت فى سعادة ، وأنا أقول فى حب :

— اليوم يا (نسرين) .

والتقينا ..

وكان لقاءً رائعاً ..

امتزجت قلوبنا ، وتعانقت أكفنا فى حب وحنان ، وقطعنا الشاطئ فى سير متهاد حالم ، وكنا نتطلع إلى غروب الشمس ، حينما همست فى أذنها :

— هل يعجبك المشهد ؟

أجابتني فى صوت حالم ، يقطر بالنشوة :

– إنه يبهرنى .

عقدت حاجبى ، وأنا أغمغم :

– على الرغم من رؤيتك له يوميًّا ؟ !

ابتسمت فى رقة ، وهى تقول :

– الجمال لا يفقد روعته أبداً ، مهما تكررت رؤيتنا له ، إننى لا أملّ مشهد الغروب حتى ولو رأيته عشر مرات فى اليوم الواحد .

أثارت عبارتها دهشتى وحيرتى مرة أخرى ، حتى أننى عدت أتأمل خطواتها ، ونحن فى طريق عودتنا إلى فيلتها ، وتطلعت فى حيرة إلى تلك الخطوات الرقيقة ، التى تمس الأمواج فى حنان ورفق ، ونعومة رائعة ، ورحت أقارن بينها وبين خطواتها العنيفة فى نزهتنا السابقة ، وازدادت حيرتى ..

* * *

٦ – شاطىء الحب ..

وتكررت لقاءاتى مع (نسرين) ، وفى كل لقاء كانت حيرتى تتراجع ،وكانت ذاكرتى تمحو من نفسها تلك الأيام ، التى أثارت فيها (نسرين) حيرتى ..

كانت طوال تلك الأيام الخمسة مثالا للرقة والحنان ، والعذوبة والجمال ، حتى أننى لم أعد أذكر (نسرين) الأخرى ، التى تجاهلتنى فى المرقص ، وسخرت من مشاعرى وعواطفى ..

عدت أسبح فى بحر الحب مع (نسرين) قلبى ، التى ملكت مشاعرى ، وأيقظت عواطفى وأحاسيسى .

لست أدرى ما يفعله بنا الحب ..

إنه يجعلنا أرق وأحن وأقدر على الغفران والنسيان والعطاء ..

إنه تاج المشاعر البشرية ، وذروة الأحاسيس الراقية ، التى ميز بها الله (سبحانه وتعالى) البشر من دون باقى المخلوقات ..

إنه الحياة ..

لقد أصبحت أعشق حياتى ، وعملى فى المشروع الجديد ..

أصبحت أكثر حماساً ، وأكثر رغبة فى النجاح والتفوق ..

ولقد شاركتنى (نسرين) حماسى ، بل كانت أكثر حماساً منى ، بعد أن علمت أن نجاحى فى تنفيذ هذا المشروع ، سيؤدى إلى ترقيتى ، وزيادة دخلى ..

وفى كل مرة نلتقى ، كنت أقاوم ، فى شدة ، رغبتى فى مفاتحتها فى أمر زواجنا ، احتراماً لرغبتها فى أن تحدد هى الموعد ..

وأصبح شاطئ العجمى بالنسبة لى هو شاطئ الحب ، والأمل والحياة ، وتفتحت زهور الحب فى بستان قلبى ، وبدا وكأن الحياة قد استقامت لحبى ..

ولكن ...

يا لها من كلمة تلك التى تقلب كل شىء رأساً على عقب !! وتحيل الحب رماداً ، والحياة فناء ، والخضرة يابساً !!

لقد مضت الأيام الخمسة ، ومضى معها الأمل .

وعادت الحيرة ..

كنت أجلس فى مكتبى ، حينما جاء العامل يقول فى روتينية :

– السيدة تنتظر فى الخارج .

تهللت أساريرى ، وأنا أشير إليه أن يسمح لها بالدخول ، وتركت أوراقى ، واتسعت ابتسامتى ، وأنا أنتظر قدومها ، ولكن تلك الابتسامة لم تلبث أن تجمدت على شفتى ، ثم تلاشت ، وحلت محلها الدهشة ، حينما خطت (نسرين) إلى مكتبى فى رعونة ، واستندت بكتفها إلى الباب ، وتطلعت إلى بتلك النظرة الساخرة المقيتة ، وهى تقول فى عبث :

– كيف حالك ؟

مضت لحظات طوال ، وأنا أتأملها بمزيج من الدهشة والإحباط ، قبل أن أغمغم :

– بخير حال .

أطلقت ضحكة لاهية ، أطلقت ذكرياتى كلها

من عقالها ، وأيقظت حيرتى ، وحنقى ، وسخطى ، ومقتى لأسلوبها ، فهتفت :

— ماذا بك ؟ .. هل جننت ؟

عادت تضحك مرة أخرى ، وتعلقت عيناها بعينى فى جرأة ، ثم اتجهت إلى مكتبى ، وجلست فوقه ، ومدت يدها تَرَبِّت بها على وجنتى فى نعومة ، وهى تقول :

— ما زلت كما أنت ، طريفاً ورصيناً .

أبعدت يدها فى حيرة ، وقلت فى صرامة :

— (نسرين) .. إننى لا أحب أسلوبك هـذا ، لقد كنت أفضل أمس .

ظهر الحنق فى قسماتها لحظة ، ثم لوحت بذراعها ، وهتفت فى سخط :

— أيها الغبى .. إنك تضيع عمرك ، بتلك الرصانة السخيفة ، لِمَ لا تعيش حياتك على النحو الذى يروق لك .

قلت فى حِدَّة :

— كالرقص مثلا .

أطلقت ضحكة أثارت أعصابى ، وهى تقول :

— أما زلت تذكر ذلك اليوم ؟

شعرت بالألم ، وأنا أشيح بوجهى ، قائلا :

— كدت أنساه ، لولا عودتك لذلك الأسلوب المقيت .

احتقن وجهها فى سخط ، وخلتها ستنفجر غاضبة ، إلا أن ملامحها لم تلبث أن استكانت بسرعة ، وهى تسألنى فى اهتمام :

— هل تحب أسلوبى الآخر ؟

هتفت :

— بل أعشقه ، فأنا أهوى الرقة والحنان والشاعرية .

أطرقت برأسها أرضاً ، وبدت شديدة العصبية ، وهى تهمهم بكلمات لم أفهمها ، ثم قالت فى توتر :

— أعطنى سيجارة .

حدقت فى وجهها بذهول واستنكار ، ولكنها عادت تهتف فى عصبية :

— أريد سيجارة ، ألا تدخن ؟

هتفت فى غضب :

– كلاً ، وأنا أكره من يدخنون .

شحب وجهها ، وامتقع ، وهى تتأمل ملامحى فى حيرة ، ثم خيل إلى أنها قد انهارت فجأة ، حينما ألقت بجسدها الضئيل فوق مقعدى ، وانفجرت ببكاء حار .

أسالت دموعها حزن قلبى ولوعته ، فاقتربت منها فى بطء ، وتحسست شعرها الناعم فى حنان ، فما كان منها إلا أن أسندت رأسها على جسدى ، وغمغمت من وسط دموعها :

– ماذا أفعل لأرضيك ؟

عدت أمسح على شعرها فى حب ، وأنا أغمغم :

– كونى كما أنت .. (نسرين) الرقيقة ، الوديعة الحالمة .

انهمرت دموعها فى غزارة ، وارتجف جسدها ، وهى تنتحب فى قوة ، وأنا أربّتُ على كتفها فى لوعة ، ودموع قلبى تشاركها نحيبها ، حتى رفعت إلى عينيها ، وسألتنى فى لهفة :

– (أكرم) .. هل تحبنى ؟

هتفت من أعماق قلبى :

– بل أنا أعشقك يا (نسرين) .

ارتجف جسدها ارتجافة قوية ، وحدّقت فى وجهى بنظرات غاضبة ، لم أفهمها أبداً ، ثم دفعتنى بعيداً عنها فى حنَق ، وهبّتْ واقفة ، وهى تقول فى حِدّة :

– ابتعد عنى .

هتفت بها وقد بلغ ذهولى مبلغه :

– ماذا أصابك يا (نسرين) ؟

صرخت فى ثورة ، وهى تخفى أذنيها بكفيها :

– كفَى .. كفَى .

ثم اندفعت خارج مكتبى فى غضب هائـل ، وتركتنى مذهولا ، أضرب كفًّا بكف ..

ماذا أصابها ؟! ..

ماذا فعلت لتغضب منى ؟! ..

لقد سألتنى إن كنت أحبها فأجبتها بالإيجاب ، فلِمَ ثارت ؟ ولِمَ هاجت ؟ ..

ألقيت جسدى فوق مقعدى ، وأنا أقلب الأمر على كل الوجوه ، دون أن أجد تفسيراً واحداً لموقفها الجنونى هذا ..

واستغرقتنى حيرتى ، حتى أننى أهملت عملى ، ولم أغادر مكتبى طيلة ذلك اليوم ..

وعندما حانت لحظة الغروب ، التى طالما جمعتنا معاً ، وجدتها تقف على الشاطئ ساكنة ، تتطلع إلى قرص الشمس فى شرود ووجوم ، فاقتربت منها فى هدوء ، ووضعت يدى على كتفها فى حنان ، وغمغمت :

– هل هدأت نفسك يا حبيبتى ؟

لم تلتفت إلىّ ..

بل لم يبد عليها حتى أنها تسمعنى ..

لقد مضى وقت طويل ، قبل أن تغمغم فى صوت حزين :

– يبدو أننا لن نتفق أبداً يا (أكرم) .

احتضنت كفها الرقيقة فى حنان ، وأنا أهمس :

– لماذا يا (نسرين) ؟ .. ماذا حدث حتى تهدمى حبنا بهذه العبارة ؟

زفرت فى ألم وحنق ، قبل أن تقول فى حيرة :

– إنك لن تفهم أبداً .. لن تفهم أبداً .

أثارت عبارتها قلقى وجزعى ، فسألتها فى توتر :

– لن أفهم ماذا ؟

صاحت فى حنق :

– لن تفهمنى أبداً .

ثم أدارت عينيها إلىّ فى حدّة ، ومن العجيب أن مرأى عينيها أثار فى جسدى رجفة رهيبة ..

لم يكن هناك أدنى أثر للرقة فى عينيها ..

كانتا تموجان بالقسوة ، والغضب ، والشراسة ، وهى تهتف :

– ابتعد عنى .

سألتها وأنا أتراجع فى حيرة :

– ألن نشاهد الغروب معاً يا (نسرين) ؟

صرخت فى سخط شديد :

- تبًّا لك وللغروب معاً .

ثم انفلتت من جانبى ، وانطلقت تعدو نحو الفيلا ، وأنا أتابعها ببصرى فى ذهول ، ثم وقفت أحَدِّق فى الغروب شارداً ، وأنا أغمغم :

- هذا غير طبيعى .. غير طبيعى .

وجلست على الرمال ، وقد شعرت أن ساق لن تحتملا ثقلى ، وثقل كل الحيرة والعذاب اللذين أحملهما على أكتافى ..

ماذا حدث ؟ ! ..

ماذا يصيبها ؟ ! ..

ظل هذان السؤالان يلحان على رأسى ، حتى اختفى قرص الشمس ، وامتد الظلام إلى الشاطئ ، فنهضت ، وأخذت أسير إلى منزلى مترنحاً مذهولا ، وهناك ألقيت جسدى المنهك فوق الفراش ، وعدت ألقى على عقلى المكدود عشرات الأسئلة ، وهو يعجز عن إجابتها ، من شدة حيرته وقلقه ..

وبينما كنت مستغرقاً فى التفكير ، انطلق رنين

جرس الباب فجأة ، فانتفضت فى فراشى ، وقمت إلى الباب فى حنَق وتوتر ، ولم أكد أفتحه ، حتى غمرتنى ابتسامة مرحة ، وسمعت صوت صديقنا (مراد) يهتف :

- كيف حالك يا كبير المهندسين ؟ .. لماذا لم تخبرنى أنك هنا فى الإسكندرية ؟ .. لقد علمت الأمر بالمصادفة ، وتعبت كثيراً حتى عرفت ، من أحد عمالك ، موقع سكنك .

ابتسمت فى شحوب ، وأنا أصافحه ، قائلا :

- مرحباً يا (مراد) .. كيف حالك أنت ؟

حدَّق (مراد) فى وجهى لحظة ، ثم ابتسم ، وهو يقول فى مرح :

- إنك تبدو مكتئباً ، وهذا تخصصى .

غمغمت فى ضيق :

- لست مؤهلا للمزاح يا (مراد) .

هتف فى استنكار :

- أى مزاح ؟ .. هل نسيت أننى طبيب نفسانى ؟ وأن معالجة الاكتئاب جزء من تخصصى ؟

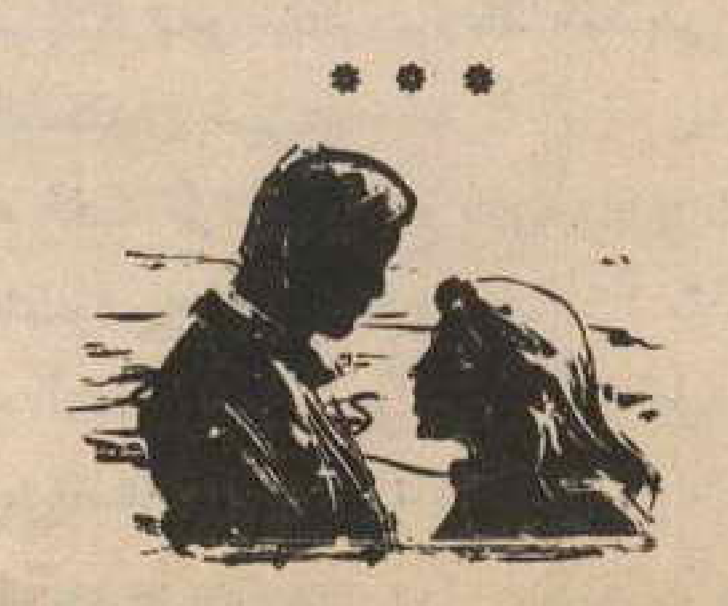
ابتسمت فى صعوبة ، وأنا أغمغم :

- كلاً .. لم أنس يا ..

وفجأة بترت عبارتى ، وبرقت فى رأسى فكرة عجيبة ، فتشبثت بذراع (مراد) على نحو مفاجئ ، جعل حاجبيه يرتفعان فى دهشة ، وأنا أهتف فى لهفة :

- نعم يا (مراد) .. أنت الشخص المناسب تماماً. لقد أرسلك القدر لى فى الوقت المناسب .. اجلس ، فسأطلب منك تفسيراً لحالة نفسية معقدة .

* * *



٧ - وجهان لعملة واحدة ..

استمع إلى (مراد) فى صبر واهتمام شديدين ، وهو ينفث دخان ذلك الغليـون الصـغير ، الذى يصرّ على تدخينه ، منذ تخرج من كلية الطب ، وانطلقت أنا أقص عليه كل شىء ، محاولا - بقدر الإمكان - عدم إهمال أية تفاصيل ، مهما بدت تافهة ، حتى انتهيت من قصتى ، وران علينا صمت عميق ، لم يقطعه إلا سعال (مراد) ، وهو يشعل غليونه ، قبل أن يبتسم ، ويقول فى هدوء ورصانة :

- يا لها من قصة !! .. صدقنى يا (أكرم) ، أى طبيب نفسانى - فى العالم كله - يتمنى رؤية هذه الحالة النادرة .

تضاعف قلقى وتوترى ، وأنا أغمغم :

- أية حالة نادرة ؟!

هزّ رأسه فى وقار ، وهو يقول :

- اسكيزوفرانيا .

سألته فى دهشة :

— ماذا ؟

ابتسم فى جذل ، وكأنما أسعده جهلى بالمصطلح ، وقال :

— انفصام الشخصية يا صديقى .. أو الشيزوفرانيا كما يطلق عليها العامة .

ارتجف جسدى فى توتر بالغ ، وأنا أقول :

— يا إلهى !! .. انفصام الشخصية ؟

هتف (مراد) فى حرارة :

— نعم ، ولكنها حالة شديدة الندرة ، تلك التى تواجهها أنت ، فتسعون فى المائة من المصابين بانفصام الشخصية ، يكون مرضهم مجرد صراع داخـــلى فى أعمـاقهم ، يدركونه ، ويسبب لهم القلق ، أما بالنسبـة لحالة (نسرين) ، فهى انفصام كامل ، بحيث يتحول المريض إلى شخصيتين مختلفتين تماماً ، لكل منهما عالمها الخاص ، ولا تدرى إحداهما عن الأخرى شيئاً ، على الرغم من تشاركهما فى جسد واحد .

غمغمت فى ذعر :

— يا إلهى !!

ولكنه واصل دون الاهتمام بجزعى :

— وهذه الحالة تصيب دائماً أولئك الذين يعايشون مجتمعاً يخالف تماماً طبيعتهم ، كأن يحيا شخص فاسق عربيـد فى بيئة محافظـة متدينة ، وتجبره الظروف على اتباع قواعد وتقاليد تلك البيئة ، وهو فى أعماقه يشعر بالانتماء إلى بيئة عكسـية ، وهنـا تنفصم شـخصيته ، ويسيطر عقله الباطن على جسده فى بعض الفترات ، ويحوله إلى شخصية أخرى ، هى بالضبط الشخصية التى يرغب فى أن يكونها .

عدت أغمغم فى خوف ورهبة :

— هل تعنى أن (نسرين) .. ؟

قاطعنى فى حماس :

— يبدو أن (نسرين) هذه تعيش فى بيئة محافظة للغاية ، ولكن عقلها الباطن يهفو للهو والمرح ، كمعظم الفتيات فى مثل عمرها ، وصراعها الدائم بين رغبـــة

عقلها الواعى فى الحياة المتزنة المحافظة ، ورغبة عقلها الباطن فى حياة اللهو والمرح ، أصابها بانفصام فى الشخصية ، ومن الواضح أنها أصبحت اثنتين فى جسد واحد،أو وجهين لعملة واحدة ، فتارة تكون(نسرين) الرقيقة الحنون ، وأخرى (نسرين) المستهترة اللاهية ، وفى مثل هذه الحالات النادرة ، ترفض كل من الشخصيتين الأخرى تماماً ، بل قد تتخذ الشخصية الثانية اسماً مختلفاً ، وكأنها تعلن رفضها للشخصية الأخرى ثم إن كلتيهما تتعامل مع الأخرى وكأنها كيان منفصل.

هتفت أسأله فى ألم :

— وما الحل ؟

مطّ شفتيه ، وقال فى هدوء :

— أنت تملك الحل يا (أكرم) .

هتفت فى دهشة :

— أنا ؟ !

أومأ برأسه إيجاباً فى رزانة ، وقال :

— نعم يا (أكرم) .. أنت .

ثم عاد يردف فى اهتمام شديد :

— طبقاً لقصتك ، من الواضح أن الشخصيتين قد وقعتا فى هواك ، وهذه نقطة بالغة الأهمية ، فلأول مرة فى تاريخ مرض انفصام الشخصية ، تتفق شخصيتا المريض فى هدف واحد ، على الرغم من اختلافهما الجذرى، وأنت هذا الهدف يا (أكرم) ، ف (نسرين) تحبك برقتها وخجلها ، والأخرى تحبك بعبثها واستهتارها ، وبكاء الشخصية الثانية ، وسؤالها لك عما تفعله ليرضيك يؤكد ذلك، وأنت وحدك يمكنك إدماج الشخصيتين ، ومزجهما فى جسدهما المشترك ، فينتهى المرض .

سألته فى لهفة :

— كيف ؟ !

أجابنى فى اهتمام :

— لا تواصل محاربتك للشخصية الأخرى، امنحها حبك وحنانك بإخلاص وصدق ، وتذكر مهما بدت لك مختلفة ، ومهما أتت من أفعال تكرهها ، أنها نفس

(نسرين) التى أحببتها ، وإنما فى وجه جديد .

أطرقت برأسى ، وأنا أغمغم فى توتر :

ـ سأحاول .

رَبَّتَ على كتفى فى رفق ، وقال فى شفقة :

ـ تذكر إنها تحتاج إليك يا (أكرم) ، وأنت الشخص الوحيد فى هذا الكون ، القادر على إخراجها من أزمتها .

هتفت فى حرارة ، وقد ملأت عبارته الأخيرة نفسى بالحماس :

ـ لن أتخلى عنها أبداً يا (مراد) .. صدقنى .. لن أتخلى عنها أبداً .

وقررت فى تلك الليلة أن أمزج وجهى العملة معاً ، مهما كلفنى ذلك ..

* * *



٨ ـ المحاولة ..

انتظرت قدوم (نسرين) إلى مكتبى ، بفارغ الصبر فى اليوم التالى ، وأنا أفكر فى كلمات (مراد) ، وفى تشخيصه لحالتها النفسية النادرة ، وقد انتابنى نحوها شعور بالشفقة والعطف ، وامتلأت نفسى بحماس زائد ، ورغبة صادقة فى معاونتها على الشفاء ، وعلى اجتياز هذه الأزمة العجيبة ..

ومضى اليوم فى بطء وتثاقل ، وأنا أحاول عبثاً الاهتمام بعملى ، دون أن أنجح فى محو صورة (نسرين) من ذهنى أبداً ، وفى النهاية ، وبعد أن تأكدت من أنها لن تأتى إلىّ ، بعد أن انصرفت عنى غاضبة أمس توجهت أنا إلى الفيلا ، وانفعالاتى تكاد تصل إلى ذروتها ..

وتوقفت على بعد خطوات من الفيلا ، وخفق قلبى وأنا أتطلع إلى حبيبتى ، وهى تجلس فى شرفة الفيلا شاحبة ، متهالكة ، وكأنها شاركتنى أرق طيلة الليل ، واقتسمت معى همومى ..

واقتربت منها فى بطء ، حتى لامست حاجز الشرفة بأصابعى ، وهمست فى صوت مرتجف ، مفعم بالعاطفة والانفعال :

— (نسرين) .. حبيبتى .

أدارت عينيها إلى فى بطء ، وهالنى ما رأيته فيهما من حزن عميق ، واتهام عنيف ، فعدت أهمس فى إشفاق :

— أما زلت غاضبة ؟

أشاحت بوجهها عنى ، وهى تقول :

— ابتعد عنى يا (أكرم) .

آلمتنى عبارتها ، وأثارت مشاعرى وكرامتى وهلة ، قبل أن أتذكر حديث أمس مع (مراد) ، فقلت فى حنان :

— لو أننى أغضبتك فأنا أعتذر يا (نسرين) .. إننى أحبك ، ولست أتصور أبداً أن أكون سبباً لأحزانك .

صمتت تماماً ، ولمحت خيطاً من الدموع ينسال على وجهها ، فعدت أقول فى حب :

— غروب الشمس ينتظرنا ياحبيبتى .

عادت تلتفت إلىّ ، وتتأملنى بعينين زادتا فى حيرتى ..

لم تكونا رقيقتين ..

ولا قاسيتين ..

كانتا حزينتين ..

وشعرت بقلبى يبكى ، ويدمى ، وينوح ، فهتفت بها :

— هيّا ياحبيبتى .

نهضت فى استسلام ، وهبطت سلم الفيلا فى خطوات ثقيلة ، ثم سارت إلى جوارى فى صمت حتى شاطئ البحر ، وأنا أتابع خطواتها العنيفة ، التى تثير الرمال ، وتحطم الأمواج ، وهناك وقفنا صامتين ، نتطلع إلى قرص الشمس ، ولما طال صمتنا وضعت يدى على كتفها فى رفق ، وهمست :

— أحبك يا (نسرين) .

وجاء رد فعلها عجيباً وعنيفاً ..

لقد استدارت تواجهنى فى حِدّة وغضب ، ودفعت يدى بعيداً عن كتفها فى عصبية ، وهتفت فى حنَق :

– إنك تفسد كل شىء .

سألتها فى حيرة :

– لماذا يا (نسرين) ؟

صرخت فى حِدّة :

– إننى لست (نسرين) .

تراجعت فى دهشة ، وأنا أُحدّق فى وجهها مستنكراً ، ثم لم ألبث أن تذكرت حديث (مراد) ، وتفسيره لمرض (نسرين) ، وقوله إن المصاب بانفصام الشخصية قد ينكر اسمه الحقيقى ، ويتخذ اسماً جديداً ، فعدت أبتسم ، وأغمغم فى حنان :

– حسناً .. ما اسمك إذن ؟

تطلعت إلىّ فى تحدّ ، وهى تقول :

– اسمى (نرمين) .

قلت فى هدوء :

– هذا لايعنينى .

جاء دورها لتتطلع إلىّ فى دهشة ، وهى تغمغم :

– ماذا تعنى ؟

احتضنت كفها فى حنان ، وتطلعت إلى عينيها العسليتين فى حب ، وأنا أهمس :

– اسمك لا يعنينى كثيراً ياحبيبتى ، فليكن (نسرين) أو (نرمين) .. المهم أننى أحبك أنت .

تهللت أساريرها ، وهى تملأ عينيها بوجهى فى سعادة وفرح ، وهمست :

وماذا عن رقة (نسرين) ، وحنانها ؟

ضحكت وأنا أقول :

– قلت لك إننى أحبك أنت .

اتسعت ابتسامتها فى سعادة جمة ، وهتفت فى مرح :

– هيّا يا (أكرم) .. هيّا بنا نشاهد الغروب معاً .

وانطلقت تعدو فوق الرمال ، وتركل الأمواج

فى سعادة ، كطفلة صغيرة ، أهدى إليها والداها لعبة جديدة أنيقة ، طال اشتياقها لها ، وهى تمسك كفى فى لهفة ، وتتشبث بها فى حرارة ، وكأنها تخشى أن أفلت منها ..

ولأول مرة ، لمحت النشوة والانبهار فى وجه (نرمين) – شخصية (نسرين) الثانية – ونحن نشاهد غروب الشمس معاً ، ولقد بدأت مشاعرها تمتزج بمشاعر شخصيتها الحقيقية ، فقد اكتسب صوتها رقة (نسرين) ، واكتسبت عيناها حنانها ..

لقد قاربت الشفاء ..

هذا ما هتف به (مراد) ، وأنا أقص عليه ذلك ، ثم استطرد فى حماس :

– لقد حققت نجاحاً مبهراً يا (أكرم) ، ومن المحاولة الأولى ، لقد بدأت (نرمين) العابثة تتحول إلى شخصيتها الأولى ، ومع مرور الوقت لن تلبث (نرمين) أن تذوب فى أعماق (نسرين) ، وتتلاشى وتبقى لك (نسرين) وحدها .

سألته فى لهفة :

– هل أنت واثق من ذلك ؟

عاد يهتف فى حماس :

– كل الثقة .. لقد اجتزت أعقد خطوات العلاج ياصديقى .

سبح عقلى مع ذكريات ذلك اللقاء ، وعدت أتذكر رقة (نرمين) ، وعذوبتها ، بعد أن صارحتها بحبى ، وغمغمت وكأننى أحدث نفسى :

– لقد طلبت منى إهداءها إحدى صورى .

تألقت عينا (مراد) ، وهو يسألنى فى اهتمام :

– وماذا فعلت ؟

هززت كتفى ، وأنا أغمغم :

– لقد أعطيتها صورتى كما طلبت – وكتبت خلفها إهداءً عاطفياً و ..

سألنى فى قلق :

– لمن كتبت الإهداء ؟

لم أفهم سؤاله للوهلة الأولى ، وبدا ذلك واضحاً فى قسماتى ، فعاد (مراد) يسأل :

ـ أعنى هل كتبت الإهداء لـ (نسرين) ، أم لـ (نرمين) ؟

عقدت حاجبى ، وأنا أقول :

ـ لـ (نرمين) .

ظهر الغضب على وجهه ، وهتف فى حنق :

ـ خطأ .. إنك تفسد كل شىء .

سألته فى حيرة وقلق :

ـ لماذا ؟

لوح بيده ، وقال فى حِدَّة :

ـ هل نسيت أن (نرمين) شخصية وهمية ، لن تلبث أن تزول ، وتعود (نسرين) إلى طبيعتها ؟ .. ماذا سيحدث لها لو أنها قرأت الإهداء ، وهى فى شخصية (نسرين) ؟ .. قد يصيبها ذلك بانهيار عصبى عنيف .

اتسعت عيناى فى ذعر ، وأنا أهتف :

ـ يا إلهى !! . انهيار عصبىّ .

مال (مراد) نحوى ، وقال فى صرامة :

ـ لابد أن تستعيد هذه الصورة ، قبل أن تسترجع (نسرين) شخصيتها الحقيقية .

سألته فى توتر :

ـ كيف ؟ !

أجابنى فى حِدَّة :

ـ بأية وسيلة .. المهم أن تفعل .

ظلت عبارته هذه تدوى فى أذنى طيلة الليل ، وأنا أجوب حجرتى كأسد حبيس ، حتى أشرقت الشمس ، فارتديت ثيابى ، ورحت أجوّل فى المنطقة ، والقلق يعصف بنفسى ، حتى رأيتها تقف فى شرفة الفيلا ..

نبض قلبى فى عنف ، وأنا أسرع الخطا نحوها ، وأتساءل عمن ستكون هذه المرة ..

(نسرين) أم (نرمين) ؟

ومن حسن الحظ أنها لم تكن قد استرجعت

شخصية (نسرين) بعد ، فقد استقبلتنى فى لهفة حقيقية ، وأمسكت كفى فى حرارة ، وهى تتطلع إلى ملامحى بعينين جريئتين ، ودون لمحة واحدة من الخجل ، الذى يميز شخصية (نسرين) ..

وقلت فى قلق :

ـ هل يمكننى استعادة صورتى يا .. (نرمين) ؟

حدقت فى وجهى لحظة ، ثم غمغمت فى قلق :

ـ لماذا ؟

حاولت أن ابتسم ، وأتظاهر بالمرح ، وأنا أقول :

ـ إنهم يطلبون إحدى صورى للضرورة القصوى ، فى مكتب القاهرة ، ولست أمتلك غيرها و ..

قاطعتنى فى حنق :

ـ كلا .. لن أعطيك الصورة .

تملكنى جزع شديد ، وأنا أقول فى لهجة متضرعة :

ـ أرجوك يا (نرمين) .

هتفت فى عناد :

ـ كلا .. إنها لم تعد ملكاً لك ، لقد أصبحت

ملكاً لى ، وهذا الإهداء خلفها يخصنى وحدى .

ثم أفلتت يدها من يدى ، وأسرعت إلى الفيلا ، وأغلقت بابها خلفها فى حدة ، وكأنها توقف الحديث عند هذه النقطة ..

ووقفت حائراً مذهولا ، وأنا لا أدرى ماذا أفعل ..

بل ماذا سيحدث إذا استعادت (نسرين) شخصيتها الحقيقية ، ورأت الإهداء ؟

عصف القلق بنفسى ، وامتلأت أعماقى بالحيرة ، فعدت أدق باب الفيلا ، وأنتظر حتى فتحت (نرمين) الباب ، وقالت فى صرامة :

ـ لن تأخذ الصورة .

كان من الواضح أنها لن تتراجع أبداً ؛ لذا فقد ابتسمت فى مرارة ، وقلت :

ـ حسناً يا (نرمين) .. سأتركها لك ، حتى لو فقدت فرصتى فى الشركة .

ثم استدرت ، وتظاهرت بالانصراف غاضباً ، فأسرعت خلفى ، وأمسكت كفى فى لهفة ، وهى تقول :

– هل غضبت ؟
استدرت إليها فى حنان ، وأنا أقول :
– إننى لا أغضب منك أبداً .
ابتسمت فى سعادة ، وهى تقول :
– اترك لى الصورة يوماً واحداً إذن .
ابتسمت فى شحوب ، وأنا أغمغم :
– لا بأس .
هتفت فى لهفة ودلال :
– (أكرم) .. أما زلت تحبنى ؟
أجبتها فى إخلاص :
– نعم أحبك يا ..
توقفت لحظة ، فسألتنى فى مرح :
– يا من ؟ .
ضحكت فى مرح ، ثم ضممت كفها إلى صدرى فى حرارة ، وقلت فى حب عميق :
– أحبك .. أحبك يا (نرمين) .
ولا أظن أننى رأيت فى حياتى ابتسامة فرحة

متألقة ، مثل تلك التى ارتسمت على شفتيها إثر عبارتى ، حتى أن تلك الابتسامة لم تفارق ذهنى لحظة ، طيلة عملى فى ذلك اليوم ، حتى فوجئت بعامل مكتبى يقتحمه فى توتر ، ويهتف فى جزع :
– الآنسة يا باشمهندس .
أرجفت عبارته الجزعة قلبى ، وهبطت به بين قدمى ، وأنا أهتف :
– ماذا بها ؟ .. ماذا أصابها ؟
أجابنى فى صوت حزين ملتاع :
– لقد نقلوها إلى المستشفى .
سقطت على مقعدى من فرط صدمتى ، وأنا أغمغم فى ألم :
– المستشفى ؟ !
أومأ العامل برأسه إيجاباً ، وقال فى حزن :
– نعم ياسيدى .. لقد أصيبت بانهيار عصبى .
وجمد الدم فى عروق ..

* * *

٩ ـ الصدمة ..

لست أدرى كم مرّ من الوقت وأنا مسمّر فى مقعدى ، من فرط الألم والذهول ، وأنا أستعيد أحداث الشهر كله ..

لقد تحققت نبوءة (مراد) ..

لقد استعادت (نسرين) شخصيتها ، ورأت الصورة ، وقرأت الإهداء ، وأصابها الموقف بصدمة عصبية قوية ..

إنها لا تدرك أن (نرمين) هى جزء منها ، وأن حبى لها هو جزء من حبى لـ (نسرين) .

لا تدرك أنها مصابة بانفصام شخصية قوى ونادر ..

لقد غارت من نفسها ، وتألمت من روحها ..

لقد اتهمتنى بخيانتها مع نفسها ..

يا له من موقف عجيب !!

كيف أؤكد لها إخلاصى وحبى ؟!

كيف أبرر لها ما حدث ؟

وأخيراً نجحت فى انتزاع نفسى من مقعدى ، وهرعت إلى مستشفى الأمراض العصبية والنفسية ، الذى يعمل فيه (مراد) ، ولم أكد أراه حتى هتفت فى ألم :

ـ (مراد) .. لقد ..

قاطعنى ، وهو يُرَبِّت على ظهرى فى هدوء وعطف :

ـ لقد أصيبت (نسرين) بانهيار عصبى .. أعلم ذلك .

ترقرقت عيناى بالدموع ، وأنا أغمغم :

ـ كيف عرفت ؟

أجابنى فى إشفاق :

ـ لقد وصلت وأنا هنا ، وما أن رأيت ملامحها ، وعرفت اسمها ، حتى أيقنت أنها نفس حبيبتك .

سقطت منهاراً فوق أقرب مقعد إلىّ ، وأنا أغمغم فى ألم :

ـ ماذا سيكون مصيرها يا (مراد) ؟

هزّ كتفيه وقال :

ـ ستشفى من الانهيار العصبى ، ولكن علاجها من انفصام الشخصية سيحتاج إلى وقت أطول .

بكيت فى حزن وألم ، وأنا أغمغم :

– إننى أحبها يا (مراد) .

جلس إلى جوارى ، وغمغم فى حزن :

– أعلم ذلك يا (أكرم) ، ولكننى أتمنى أن تراجع موقفك فى شعورك هذا .

سألته فى ألم :

– لماذا ؟

مط شفتيه لحظة ، ثم أجاب :

– لو أنك قررت الزواج منها فسيكون عليك أن تتزوج اثنتين ، إحداهما (نسرين) الرقيقة ، المفعمة بالحنان ، التى هى مثال للزوجة الصالحة ، والأخرى (نرمين) اللاهية العابثة ، التى قد تأتى من الأفعال ما لا يروق لك ، وما يجعلك تفقد احترام المجتمع .

– فليذهب المجتمع إلى الجحيم .

– هذا يتناقض مع رغبتك فى النجاح والتفوق ، فالإنسان الناجح جزء من المجتمع ، ونظرة المجتمع

إليه قد تدفعه إلى مزيد من النجاح والرقى ، أو إلى هاوية الفشل واليأس .

– إننى أحبها .

– من تحب ؟ .. (نسرين) أم (نرمين) ؟

– إنهما شخص واحد .

– ما دامت لم تشف بعد ، فهما شخصيتان .

– سأتزوجها كما هى .

– كما هى (نسرين) ، أم كما هى (نرمين) ؟

– كليهما ..

– خطأ .. إنك ستذوب حباً للأولى ، ومقتاً للثانية ، وسينشأ فى أعماقك صراع ، قد يؤدى إلى إصابتك بانفصام شخصية أيضاً .

– هذا لا يهمنى .

– لا تتسرع يا (أكرم) فالقرار بالغ الخطورة .

ثم وضع يده على كتفى فى حنان ، وقال :

– عُد إلى القاهرة يا (أكرم) ، وحاول أن تفكر فى الأمر بعيداً عن بؤرة مشاعرك ، وأنا واثق أنك ستصل إلى قرار حكيم ، حينما تعود .

قلت وأنا أبكى ألماً :

- لن أتركها وحدها .

هزّ كتفيه ، وقال :

- إنك لن تفعل لها شيئاً هنا ، فزيارتها ممنوعة ، وهى تتناول أدوية تجعلها فى نوم دائم تقريباً .

ثم رَبَّتَ على كتفى ، واستطرد :

- عد إلى القاهرة يا (أكرم) .

ولقد استمعت إلى نصيحته ، وعدت إلى القاهرة منذ ثلاثة أيام ، ولكن النوم لم يجد طريقه إلى جفونى أبداً ، حتى أننى أجوب شوارع القاهرة من شروق الشمس إلى غروبها ، عسى أن ينهكنى هذا ، فأستسلم للنعاس ، ولكن هيهات ..

هيهات أن يعرف قلبى الراحة ، قبل أن أصل إلى قرار حاسم ..

ولقد أهلكتنى الحيرة ياصديقى ..

أهلكتنى تماماً ..

* * *

١٠ - لمسات صديق ..

ران صمت عميق على الحجرة ، بعد أن انتهى (أكرم) من قصته ، وظل (حسنى) شارداً لحظات ، ثم نهض من مقعده ، ووقف يتطلع ، عبر النافذة ، إلى الشارع المزدحم بالمارة والسيارات ، دون أن ينطق بكلمة واحدة ، إلى أن ارتفعت طرقات والدته على باب الحجرة ، فأسرع يلتقط منها كوبى الشاى ، ويشكرها بكلمات رقيقة حانية ، ثم أغلق الباب مرة أخرى ، وناول (أكرم) كوباً منهما ، ورشف رشفة من الآخر ، قبل أن يقول فى هدوء :

- وهل توصلت إلى قرار مّا ؟

أطرق (أكرم) برأسه ، وهو يغمغم :

- إننى أحبها يا (حسنى) ، ولن يمكننى العيش بدونهـا .

- حتى ولو ظلت مصابة بهذا المرض طيلة عمرها ؟

- نعم .

- هل تعتقد أنك ستحتمل (نسرين) و (نرمين) معاً ؟

- حبي لـ (نسرين) سيكيفهما معاً .

- ستعذبك (نرمين)

- ستمحو (نسرين) عذابها .

- ستقودك (نرمين) إلى الفشل .

- سترفعنى (نسرين) إلى قمة النجاح ، على الرغم من فشل (نرمين) .

ضم (حسنى) شفتيه ، وقال :

- إذن فأنت تحبها حقًّا .

هتف (أكرم) فى حرارة :

- لم أعد أشكّ فى ذلك يا (حسنى) .

صمت (حسنى) لحظة أخرى ، ثم قال :

- سأذهب لمقابلة (مراد) .

غمغم (أكرم) فى حيرة :

- لماذا ؟ .. لقد أخبرتك كل ما ذكره لى .

أجابه (حسنى) فى حماس :

- قد يخبرنى بالمزيد ، فأنت تستمع إليه بأذنى محب ، أما أنا فسأستمع إليه بأذنين عادلتين .

صمت (أكرم) مفكراً ، ثم هتف :

- سأذهب معك .

رَبَّتَ (حسنى) على كتفه ، وقال :

- كلاّ يا (أكرم) .. سأذهب وحدى ، وأريدك أن تلزم منزلك حتى أعود إليك .

خفض (أكرم) عينيه الذابلتين ، وغمغم فى حزن :

- كيف أشكرك ؟

عاد (حسنى) يُرَبِّتُ على كتفه ، ويقول فى مزيج من الحنان والعطف :

- لا تقل هذا يا (أكرم) .. إننا صديقان .

وفى اليوم التالى ، كان (حسنى) يجلس مع (مراد) ، الذى استقبله فى حرارة ، واستمع إليه فى اهتمام ، ثم قال :

- لو أردت رأيي يا (حسنى) ، فمن الأفضل أن يتركها (أكرم) .

سأله (حسنى) فى قلق :

– هل تظن أنها لن تشفَى يا (مراد) ؟

هز (مراد) كتفيه ، وقال :

– سيمضى وقت طويل .. طويل جداً .

ثم اعتدل فى مقعده ، وقال :

– كان من الممكن أن تشفيها الصدمة ، ولكنها على العكس ، زادت من صعوبة حالتها ، فمن المعتاد فى مثل هذه الحالات النادرة ، من انفصام الشخصية ، أن تجهل كل من الشخصيتين وجود الأخرى تماماً ، ولقد كان هذا صحيحاً فى البداية ، وبعد الصدمة النفسية ، التى مرت بها (نسرين) ، تصورت أن (نرمين) هى توءمتها ، وأنهما تتعايشان معاً ، وهذه قمة الانهيار فى مثل هذا المرض .

عقد (حسنى) حاجبيه ، وقال :

– ألا يمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟

ابتسم (مراد) ، وقال :

– وأين توءمتها هذه ؟.. إنها هنا منذ أربعة أيام ، فلماذا لم تأت لزيارتها مرة واحدة ؟

عاد (حسنى) يسأله فى اهتمام :

– هل سألت والدتها ؟

هز (مراد) رأسه نفياً فى هدوء ، وقال :

– والدتها تحمل بين جنباتها قلباً ضعيفاً ، ولو أننى أخبرتها عن حقيقة مرض ابنتها ، لسقطت جثة هامدة .

سأله (حسنى) فى توتر :

– أما من وسيلة لمعرفة الحقيقة إذن ؟

مط (مراد) شفتيه ، وقال :

– لسنا نحتاج إلى ذلك ، فالحالة واضحة .

ثم مال نحو (حسنى) ، وسأله :

– هل تحب مقابلتها ؟

أجابه فى لهفة :

– إننى أتمنى ذلك .

ابتسم (مراد) ، وقال :

— حسناً .. هيَّا بنا .

واصطحبه إلى حجرة أنيقة ، لم يكد (حسنى) يخطو داخلها ، حتى بهره جمال (نسرين) ورقتها ، وهى تجلس على طرف فراش ناصع البياض ، والحزن يملأ ملامحها كلها ، وهمس (مراد) ، وهو يشير إليها :

— سأتركك تتحدث إليها وحدكما يا صديقى ، وسنناقش الأمر بعد ذلك .

ثم تراجع خارج الحجرة ، وأغلق بابها خلفه ..

ووقف (حسنى) لحظة متردداً ، ثم تقدم إليها ، فرفعت عينيها تتأمله فى استكانة ، مما جعل صوته يتلعثم ، وهو يغمغم :

— أنا (حسنى) .. صديق (أكرم) .

ارتسم الحزن فى عينيها ، وخفضت وجهها الجميل فى ألم ، وهى تغمغم :

— ماذا تريد ؟

وجد صعوبة كبيرة فى السيطرة على مشاعره ، وهو يهمس :

— أريد أن أعرف ماذا حدث ؟

ابتسمت فى ألم ، وهى تقول :

— ولماذا لم يأت (أكرم) بنفسه ؟

عاد (حسنى) يكرر :

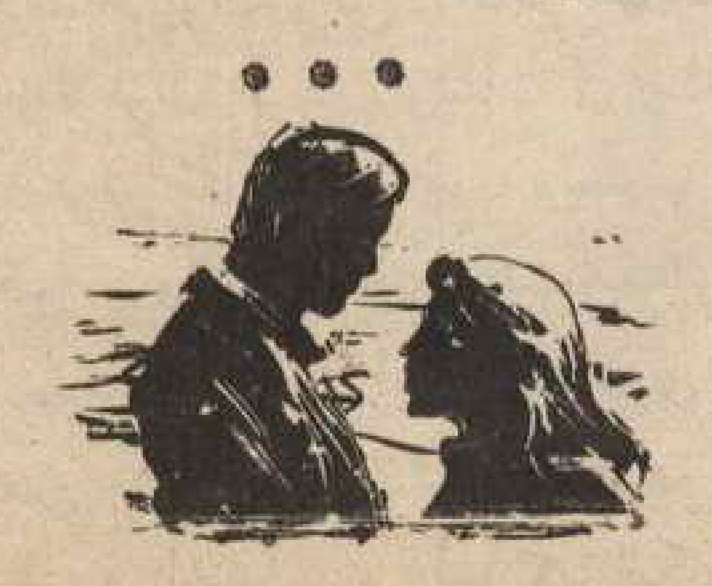
— أريد أن أعرف .

رفعت عينيها إليه فى حزن ، وغمغمت :

— حسناً .. سأخبرك بكل شىء .. سأخبرك بالقصة كلها .

وبدأت تروى ...

• • •



١١ ـ حياتى ..

لست أذكر عن والدى إلا أقل القليل ، فقد طلق والدتى وأنا فى الثانية من عمرى ، ونقل أعماله كلها إلى أوربا ، حيث كان يدخر هناك ثروة طائلة ، نجح فى تهريبها فى أثناء وبعد موجة التأميمات التى قامت بها الثورة ، ولما كانت الظروف فى تلك الأيام ، لا تسمح له بالتمتع بثروته ، فقد غادر البلاد كلها ، وأخذ يعمل فى أوربا ..

وطوال سنوات عمرى كلها لم يحاول رؤيتى ، أو حتى الاتصال بوالدتى التى لا أذكر أنها أساءت إليه بكلمة واحدة طوال عمرها ، ونشأت فى بيت حزين ، وأمى تحاول توفير كل احتياجاتى ، ويعاونها على ذلك ميراثها الكبير من والدها ، الذى كانت ابنته الوحيدة ..

وفى بعض الأيام كنت أجد أمى تبكى فى حرارة ، وهى تحتضن صورتى ، وتقبّلها فى لوعة وأسى ، فكنت أرتمى فى أحضانها ، وأشاركها البكاء ، دون

أن أدرى له سبباً ، وهى تحتضننى فى لهفــة وحنان ، وكأنها لم ترنى منذ زمن طويل ..

وكبرت على هذا الموقف ، الذى يتكرر كثيراً ، وأنا أغمر أمى بالحنان والحب ، علنى أنجح فى انتزاع حزنها الغامض الدفين ، إلى أن جاء يوم ، كنت عائدة من آخر أيام امتحانات الثانوية العامة ، حينما فوجئت بأمى تبكى ، وترتدى ثوباً أسود اللون ، فهرعت إليها أسألها عما حدث ، وعن سر الثوب الأسود ، والبكاء الحار ، فرَبَّتَتْ على شعرى فى حنان ، وقالت من وسط دموعها :

– توفى والدك يا (نسرين) .

صدمتنى عبارتها ، وزلزلت كيانى ، فوجدت نفسى أنخرط فى بكاء حار ، ودموعى تنهمر فى غزارة ..

كنت أبكى والدى ، الذى تجاهلنى طيلة خمسة عشر عاماً ، والذى لم يحاول السؤال عنا يوماً ..

كنت أبكى الأب الذى فقدت جسده وروحه ، بعد أن فقدت اهتمامه ..

لقد كنت أحلم دوماً بعودة أبي إلى أمي ..

كنت أحلم بأن أصبح فتاة عادية ، لها أب وأم ، وأسرة سعيدة ، مثل كل زميلاتي في المدرسة ، وعندما علمت أن والدي قد توفي ، انهار حلمي ، وتحطمت آمالي ، وأصابتني صدمة نفسية عنيفة ، استغرقت شهراً كاملا ، قبل أن أعود إلى حياتي الطبيعية ..

وذات يوم ، بعد مضي شهرين على وفاة والدي ، جاءت أمي إلى حجرتي ، والارتباك يلوح في كل قسماتها ، وقالت :

(نسرين) .. هناك أمر أحب أن أخبرك به .

سألتها في اهتمام ، وقد أقلقني ارتباكها :

— ما هو يا أماه ؟

جلست على طرف فراشي ، وهي تفرك كفيها في ارتباك ، قبل أن تقول :

— بعد وفاة والدك ..

لم تستطع إكمال عبارتها ، فاحتضنتها في حنان ، وقبلت وجنتها ، وأنا أقول :

— إنني أستمع إليك يا أماه .

تطلعت إليّ في حيرة وارتباك ، ثم قالت في همس متلعثم :

— بعد وفاة والدك ستأتي شقيقتك للعيش معنا .

كانت المفاجأة مذهلة لي ، فتراجعت في حدة ، وأنا أهتف في استنكار :

— شقيقتي ؟ !

ازداد ارتباك أمي ، وخفضت وجهها أرضاً ، وهي تقول في مرارة :

— نعم يا (نسرين) .. شقيقتك .. توءمك يابنيتي .

هتفت في ذهول :

— توءمتي ؟ !

انهالت دموع أمي ، وهي تقول :

— استمعي إليّ يا ابنتي .. حينما أنجبتك لم تكوني وحدك .. كنتما توءمتين ، رائعتي الجمال ، لا يمكن للمرء التفرقة بينكما أبداً ، ولقد أسعدني هذا جداً ، وأطلقت عليك اسم (نسرين) ، وعلى توءمتك اسم

(نرمين) ، وكنت أميز إحداكما عن الأخرى بلون الثياب فقط ، ولقد أخبرنى طبيب العائلة أن هـذا يرجع إلى أنكما نشأتما من بويضة واحدة ، انقسمت نصفين متساويين تماماً ، وكان هذا التشابه مستمراً معكما ، حتى بلغتما الثانية من عمريكما .

وتنهدت فى حزن ، قبل أن تستطرد :

– ثم حدث طلاق من والدك ، وأصرّ هو على الاحتفاظ بكما ، وبعد تدخل والدى (رحمه الله) ، وتهديده له بالقانون ، تظاهر بالتراجع ، وأخفى عنا تماماً فكرة سفره وعمله بالخارج ، حتى جاء يوم السفر ، فجاء إلى هنا ، وحمل (نرمين) بحجة شراء بعض الحلوى لها ، وفرّ بها إلى (سويسرا) ، وتركنى أكاد أجن لوعة وعذاباً .

وازداد انهمار دموعها ، وهى تردف :

– وفشلت كل المحـاولات فى إقناعه بإعادة (نرمين) ، حتى توفى والدك ، وفقدت آخر أمل لى باستعادة توءمتك ، ولم أكن أحب الإشارة إليها

أبداً ، وكذلك فعل الجميع ، وهكذا نشأت دون أن تعلمى بوجود شقيقة لك ، أما أنا فقد كنت أرى فيك صورة منهـا ، وكنت أتذكرها دوماً ، فأحتضن صورتك وأبكى ، وأنا أدعو الله أن يمنحنى فرصة رؤيتها ، قبل أن ألقاه .

أذابت قصة أمى قلبى ، فاحتضنتهـا فى قوة ، وشاركتها الدموع ، وأنا أهتف :

– لقد حقق الله رغبتك يا أماه .. ستأتى (نرمين) ، وتحيا معنا ، وسنكون أسعد أسرة فى العالم ..

احتضنتنى أمى فى فرح ، وغمغمت ، وهى تغمر وجهى بالقبلات :

– هذا ما أرجوه يا بنيتى .. هذا ما أرجوه .

وأصبحت أكثر حماساً من أمى لرؤية (نرمين) ، وأصبحت أنتظرها فى لهفة ، فمن النادر أن يكتشف الإنسان وجود صورة مرآة منه ..

ووصلت (نرمين) ..

كان وصولها مفاجأة لى ..

لقد كانت صورة طبق الأصل منى ..
نفس الملامح والجسم ، على نحو مذهل ..
ولقد استقبلتها فى حرارة وفرح ، واستقبلتها أمى فى سعادة جنونية ، وظلت تقبلها طيلة اليوم ، ولكن (نرمين) بدت باردة ، ترقب استقبالنا لها فى سخرية ، وكأنها تشاهد فيلماً هزلياً ، وفى ذلك اليوم ، بدأت أحصى أوجه الخلاف بيننا ..
فعلى الرغم من تشابهنا التام ، الذى أشك فى وجود مثله ، إلا فيما ندر ، كنا نختلف فى الكثير ، فصوتانا متشابهان ، و (نرمين) تتحدث العربية فى طلاقة ، بحكم انتسابها إلى أب مصرى ، ولكن لكنتها تحمل بعض النبرات الأوربية ، وكذلك طبيعتها ، التى نشأت فى مجتمع يختلف عن مجتمعنا الشرقى تماماً ..
كانت (نرمين) قاسية ، ساخرة ، تحمل فى أعماقها قدراً كبيراً من الاستهتار ، وحب المرح واللهو ، كما أنها كانت جريئة ، تفعل ما تشاء وقتما تشاء ، دون أن تبالى بمشاعر الآخرين ، على عكس

طبيعتى الرصينة ، التى تميل إلى احترام الجميع ، وإلى الهدوء والرزانة ..
ولقد كان اختلافنا مبعث سخرية (نرمين) ، وتهكمها طيلة الوقت ، بل إنها كثيراً ما أبدت دهشتها من كوننا توءمتين ، وسرعان ما اكتشفت أن (نرمين) هى صورة مرآة منى تماماً ، ولكنها مرآة سوداء ، تحمل فى أعماقها كل ما أكرهه وأمقته ..
ولقد حاولت طويلا أن أحب (نرمين) ؛ لأنها شقيقتى ، وتوءمتى ..
ولكننى عجزت ..
كانت فكرة المرآة السوداء تراودنى دائماً ، كلما حاولت التقرب إليها ، وكان أسلوبها المستهتر الساخر يصدنى دائماً ، ويمنعنى من الإحساس بها كشقيقة ..
وبدأت (نرمين) تناصبنى العداء دون مبرر ..
لقد أجادت الحديث بلهجة مصرية ، وبأسلوب يشبه أسلوب حديثى تماماً ، حتى يمكنها أن تسخر منى ..
كانت كثيراً ما تضعنى فى مواقف حرجة ، حينما

ترتدى ثيابى ، وتتعامل وكأنها أنا ، لمجرد السخرية والعبث ..

وكرهتها .. كرهت توءمتى ، التى تصرُّ دائماً على تدميرى بمرآتها السوداء الحاقدة ..

والتحقت بكلية العلوم ، وزادت الفجـوة بينى وبين (نرمين) ، حتى أننا لم نعد نلتقى إلا فيما ندر ، على الرغم من عيشنا فى منزل واحد ..

ولاحظت والدتى ما بيننـا ، وحاولت بشتى الطرق إقناعنا بحب إحدنا للأخرى ، ولكن عبثاً ..

ووسط كل هذه الأحداث وقعت جدتى مريضة بشلل نصفى ، أعاقها وأعاق حياتنا كلها ..

لقد انتقلت جدتى للعيش فى منزلنا ، وكان علينا رعايتها ، وتوفير متطلباتها ، نظراً لعجزها عن خدمة نفسها بنفسها ..

وهنا وصل صراعى مع (نرمين) إلى ذروته ..

لقد رفضت رفضاً باتـاً ، التعاون لخدمة جدتها ، وأعلنت فى وقاحة أن هذا لا يعنيها ، وأنه من الأفضل

أن تذهب جدتنا إلى أحد ملاجئ العجزة ..

كانت تتحدث بأسلوب بارد مادى ، خال من العواطف ، يؤكد انتماءها إلى المجتمع الأوربى ، الذى نشأت فيه ، وليس إلى المجتمع المصرى الذى تنتمى إليه ..

وهنا تجلت سمة من سمات أمى ، لم أكن قد تنبهت إليها من قبل ، فواجهت (نرمين) فى صرامة وحزم ، وخيَّرتها بين التعاون لخدمة أمها ، أو الانعزال عن الأسرة كلها ..

لست أدرى كيف أمكن لوالدتى معاملة (نرمين) على هذا النحو ، على الرغم من سعادتها الجمة بعودتها ، ولكن أسلوبها وجد استجابة عجيبة ، فقد وافقت (نرمين) على المبدإ ، بشرط أن نتبادل أنا وهى رعاية جدتنا ..

ومضت الشهور ، ونحن نلتزم بهذا الاتفاق ، فكل منا تتولى رعاية جدتى أسبوعاً متواصلا ، ونجحت أنا فى السنة الأولى بكلية العلوم ، فى حين لم تحاول (نرمين) حتى دخول امتحان الثانوية العامة لثانى مرة بعد رسوبها الشنيع فى المرة الأولى ، وأدى نجاحى إلى

مزيد من حقدها علىّ ، ومن الكراهية المتبادلة بيننا ..

ويبدو أن أمى لم تحتمل هذا الصراع المتواصل ، فلم تلبث أن سقطت طريحة الفراش بدورها ، واستلزم علاجها شهراً كاملا ، نصحها الطبيب بعده بقضاء بعض الوقت فى مكان مختلف ، حتى يمكنها استعادة صحتها ، ووقع اختيارنا بالطبع على فيلا جدى فى العجمى ، وقررنا أن نقضى فيها شهراً كاملا ..

ووقفت أمامنا مشكلة جدتى المريضة ، التى لا تسمح حالتها بالانتقال ..

ولما كان الذهاب إلى العجمى ضرورى لأمى ، اتفقنا على أن تتولى كل منا أنا و (نرمين) مهمة البقاء مع جدتى فى القاهرة ، ورعايتها بالتناوب ، على أن تستغرق كل منا أسبوعاً كالمعتاد ..

وجاءت النوبة الأولى من نصيب (نرمين) ، فسافرت أنا ووالدتى إلى العجمى ، وهناك ، ومع أول وصولنا ، بدأت قصة جديدة ..

قصة حبى مع (أكرم) ...

* * *

١٢ – حبى ..

لم نكد نضع رحالنا فى فيلا العجمى ، حتى انطلقت إلى شاطئ البحر ، الذى أعشقه ، وأخذت أقطع الشاطئ جيئة وذهاباً ، وأنا أشعر بالنشوة تتسلل إلى صدرى ، مع نسائم البحر ، وامتلأت نفسى بالراحة والسعادة، وأنا أرقب غروب الشمس ، ذلك المشهد الذى لايفقد روعته فى أعماق أبداً ..

وأخذت أتطلع إلى قرص الشمس فى الشفق ، وإلى ذلك المزيج الرائع من ألوان الطبيعة ، الذى لا تجده أبداً إلا فى غروب الشمس وشروقها ، وحينما غاص القرص المحتضر فى أفق البحر ، كانت النشوة قد سرت فى عروقى حتى الأعماق ، فاستدرت ، وعدت إلى الفيلا ، وأنا أسترجع ذلك المشهد الرائع فى ذاكرتى ..

وفجأة انتابنى شعور عجيب ..

شعرت وكأن شخصاً ، يحدق فى وجهى ..

شعرت بذلك على الرغم من أننى كنت أنظر إلى رمال الشاطئ ..

ورفعت عينى إلى الأمام ، وفوجئت بـ (أكرم) يجلس كالمشدوه ، وهو يتطلع إلى وجهى فى انبهار شديد ، فانتابنى مزيج من الخجل والسعادة ، وأسرعت إلى الفيلا ، وقلبى ينبض فى قوة ، ونظراته لاتفارق رأسى أبداً ..

وفى تلك الليلة وجدت نفسى أفكر فى صاحب تلك النظرات ..

كانت ملامحه من ذلك النوع الذى يبعث فى نفسى الارتياح ، فهو بيضاوى الوجه ، حليقه ، أسود الشعر ، ناعمه ، له ملامح جميلة ، وتقاطيع دقيقة ، تنم عن الرقة والرجولة فى آن واحد .

كان صورة من فارس أحلامى ..

ولكننى لم أجرؤ على التفكير فى وجود أى نوع من العلاقة معه ، إذ كانت طبيعتى الرصينة تمنعنى من محاولة الارتباط بأى شاب مالم يقم هو بالخطوة الأولى ..

ولقد فعل ..

كنت أجلس فى شرفة الفيلا فى الصباح التالى ، أطالع واحدة من تلك الروايات العاطفية ، التى تخلب لبى ، حينما اقترب هو ، وحيانى تحية الصباح ..

ولقد ارتجف قلبى ، وخفق فى شدة ، وأنا أرد تحيته ، وشعرت بسعادة جمة ، وهو يعرفنى نفسه ، وبدأ الحوار بيننا ، وامتد ، حتى وصلت أمى ..

وتركنى (أكرم) ، بعد ان اعتذر عن دعوة أمى ، لتناول الغداء ، فى أسلوب مهذب ، وبعد أن تواعدنا على لقاء آخر ، ولم أكد أدخل إلى الفيلا بصحبة أمى ، حتى بادرتنى قائلة :

— من هذا يا (نسرين) ؟

أخبرتها عن كل الحديث الذى دار بيننا فابتسمت فى حنان ، ومسحت على شعرى الطويل بكفها فى رقة ، وهى تقول :

— يبدو أنه شاب ممتاز .

غمغمت وأنا أحاول كتمان سعادتى :

— وله مستقبل باهر (بإذن الله) يا أمى .

أطلقت ضحكة خافتة ، وقبلت وجنتى ، وهى تقول :

— فليفعل الله ما فيه الخير يابنيتى .

وتورّدت وجنتى بحمرة الخجل ، حينما فهمت المعنى المستتر خلف عبارتها ، ولكننى شعرت بالسعادة لأنها أبدت موافقة ضمنية على هذا النحو .

والتقينا أنا و (أكرم) ..

التقينا أكثر من مرة ، وجمعنا غروب الشمس لأسبوع كامل ..

وكان لهذا الأسبوع فعل السحر ..

لقد بدأت علاقتنا بنوع من الإعجاب المتبادل ، والآراء المشتركة ، ثم لم تلبث أن تحولت إلى صوت مشترك يجمع قلبينا ، وسرعان ما اتخذ هذا الصوت اسماً واضحاً ، قويًّا ، هتف فى قلبينا فى آن واحد ..

اسم الحب ..

مع نهاية الأسبوع أيقنت تماماً أننى أحب (أكرم)، وأنه يحبنى ..

قد يعترض البعض على نشوء الحب بهذه السرعة، ولكننى أرى ذلك منطقيًّا ، فنحن لا نحب بسرعة أبداً ، وإنما تكون فى أحلام كل منا صورة للشخص الذى يحب ..

لست أقصد ملامحه ، وإنما أفكاره وصفاته ، وحينما نلتقى بالشخص الذى يشبه هذه الصورة ، فإننا نرتبط به بسرعة ، وكأننا كنا نبحث عنه طيلة عمرنا ، وإذا ما تأكدنا من صدق ما يبدو لنا من طباعه ، فإننا نقع فى حبه ، دون اعتبار للزمن ..

وهذا ما حدث ..

وبعد مضى هذا الأسبوع ، وبينما كان (أكرم) يوصلنى إلى الفيلا ، كان قد صرح لى بعواطفه نحوى ، بأسلوب غير مباشر ، فتواعدنا على اللقاء فى الغد ، وافترقنا ..

ولم أكد أدخل الفيلا حتى فوجئت بـ (نرمين) ، تقول فى سخرية :

– كيف حال الغروب ؟

صافحتها فى برود ، وأنا أغمغم :

– وما أدراك أنت به ؟

ظهر الغضب على وجهها لحظة ، ولوّحت بكفها ، وهى تقول :

– ومتى سأجد الوقت لمشاهدته ، ما دمتما تتركانى لخدمة هذه العجوز .

قالت أمى فى صرامة :

– إنها جدتك يا (نرمين) .

ابتسمت فى سخرية ، وقالت :

– لست أحتاج إلى من يذكّرنى بذلك .

هتفت بها فى دهشة :

– ولكن كيف أتيت وتركت جدتنا وحدها ؟

هزت كتفيها فى لامبالاة ، وقالت :

– لقد انتهت نَوْبتى ياشقيقتى العزيزة .. انتهت فى الخامسة مساء .

صحت فى غضب :

– ألم يمكنك الانتظار حتى آتى إليك ؟

عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى صرامة :

– كلاً .. عليك أنت أن تسافرى حالا ، وإلا باتت جدتك ليلتها وحيدة .

هتفت فى حنق :

– يالك من قاسية !!

أطلقت ضحكة ساخرة ، وقالت :

– أسرعى أيتها الحنون وإلا فاتك آخر قطار .

أخذت أرتدى ثيابى ، وأرتب حقيبتى ، وأنا أتميز غيظاً ، وتلك اللعينة تراقبنى فى سخرية ، وبرود ، ثم فوجئت بها تلتقط ثوبى البنفسجى ، وتقول :

– هذا الثوب يروق لى .. سأحتفظ به .

كنت أعلم أنها تتعمد إغاظتى ؛ لذا فقد تظاهرت بالبرود ، وحملت حقيبتى ، وانصرفت ،

وأنا أشعر وكأن قبضة باردة تعتصر قلبي ؛ لأنني اضطر لمفارقة (أكرم) ، دون أن أعتذر له عن لقاء الغد ..

وشعرت بندم شديد ؛ لأننى لم أترك له رسالة اعتذار ، أشرح فيها موقفى ، ولم يكد القطار ينطلق بى فى طريقه إلى القاهرة حتى عبرت قلبي سحابة من قلق لم أدر لها سبباً ، وارتسمت أمام عينى صورة لمرآتى السوداء ..

صورة لـ (نرمين) ..

ووجدت نفسى أهتف فى أعماق :

– رباه .. احفظ حبّى .

* * *



١٣ – حيرتى ..

مرت أيامى فى القاهرة بطيئة ، ثقيلة ، جافة ..

لم أقصر فى منح جدتى كل الحنان والرعاية والعناية ، ولكن ذهنى ظل مشغولا بـ (أكرم) ، واشتياقى لرؤيته يتضاعف يوماً بعد يوم ..

وكانت هناك نقطة عجيبة تؤرقنى بشدة ..

حلم يغزو عقلى فى كل ليلة بنفس المشاهد ، ويحطم مشاعرى فى قسوة ..

كنت أحلم بـ (أكرم) ، وهو يسير إلى جوار (نرمين) على شاطئ البحر ، وأكفهما متعانقة ، وعيونهما تنبض بالحب والدفء والحنان ..

ثم أراهما متعانقين ، يتمايلان على أنغام موسيقى ساحرة ، و (أكرم) يهمس فى أذن (نرمين) بأعذب كلمات الحب والغزل ، ويؤكد لها إعجابه بأسلوبها المرح المستهتر ، ويسخران معاً من رصانتى وأخلاقى ..

وينتقل بى الحلم فجأة إلى شاطئ البحر ..

إلى الغروب ..

وأراهما معاً وسط قرص الشمس ، متعانقين ..

وأراه يقبّلها فى حرارة وشوق ..

وأصحو من نومى فزعة ، وقلبى ينبض فى قوة ، ويتضرع إلى الله (سبحانه وتعالى) أن يكون الأمر مجرد حلم ..

ولكن هذا الحلم ظل يراودنى يوميًّا ، حتى كاد يصيبنى بالجنون ..

ومضت الأيام السبعة ، ولم تعد (نرمين) ، وتضاعف شعورى بالقلق ، واللهفة لرؤية (أكرم) ، وكدت أجن حينما غربت شمس اليوم الثامن ، دون أن تأتى ، لتسنح لى فرصة العودة إلى العجمى ..

إلى حبى ..

وأخيراً ، وقبيل منتصف ليل اليوم الثامن ، وصلت (نرمين) ..

لم يبد على وجهها أى نوع من التأثر ، حينما ثرت

فى وجهها غضباً ، لتأخرها فى العودة ، واكتفت بهز كتفيها فى استهتار ، وهى تقول :

– إنه يوم واحد فحسب .

ثم أردفت فى خبث :

– أم أنك تشتاقين لرؤية (أكرم) ! .

شحب وجهى ، وأنا أتطلع إليها فى ذهول ، واحتبست الكلمات فى حلقى ، فأطلقت هى ضحكة ساخرة ، وقالت :

– أنت محقة فى حبه ، فهو شاب وسيم رقيق ، يمتلئ بالرجولة .

ثم أردفت فى خبث :

– إننى أحسدك عليه .

انتزعتنى عبارتها الأخيرة من ذهولى ، فقلت فى حدة :

– ابتعدى عنه يا (نرمين) .. إنه لا يصلح لك .

عادت تضحك فى جذل ، وتقول :

– أنت على حق ، فهو رصين إلى درجة لن يمكننى احتمالها .

ثم عادت تردف ، وكأنها تخشى أن تبعث عبارتها فى قلبي الارتياح :

– ولكنه يروق لى ..

هتفت بها فى حنَق :

– وما أدراك أنك تروقين له ؟

ضحكت فى سخرية ، وقالت :

– ما دام يحبك فسأروق له ، فنحن نسخة طبق الأصل من بعضنا البعض .

قلت فى صرامة :

– فى المظهر الخارجى فحسب ، ولكننا نختلف كثيراً فى الجوهر .

تألقت عيناها ببريق التحدى ، وهى تقول :

– وهل تظنين أنه يفضل جوهرك ؟

هتفت فى حنق :

– بكل تأكيد .

أطلقت ضحكة عابثة ، وقالت :

– تبدين واثقة إلى حد كبير .

شعرت بغضب هائل فى أعماق ، فقلت فى عصبية :

– اسمعى يا (نرمين) ، إننى أحذرك ..

قاطعتنى فى صرامة :

– اسمعى أنت يا (نسرين) .. لو أننى أردت الحصول على حبيبك هذا ، لفعلت ، فالرجال يميلون إلى المرأة المتحررة ، أكثر مما تروقهم المتحفظة .

– ليس فى الزواج يا (نرمين) .

– هل ستعودين إلى الفلسفة ؟

– كلاَّ ، ولكن المثل القديم يقول : « الطيور على أشكالها تقع » ، وهذا يعنى أنه هناك نوع من الرجال يميل إلى المرأة المتحررة ، وهذا النوع يكون بطبعه محبًّا للهو والعبث؛ لذا فهو يجد مبتغاه فى المرأة العابثة ، ولكنه حينما يرغب فى الزواج ، فإنه يبحث عن امرأة متحفظة ، ليضمن صيانتها لاسمه وشرفه وكرامته بعد الزواج ، أما النوع الآخر من الرجال ، والذى لا يميل إلى العبث ، فهو يفضل المرأة المتحفظة منذ البداية .

– أنت واهمة يا توءمتى ، فكل الرجال يذوبون تحت أقدام المرأة المتحررة .

– إلا (أكرم) .

أطلقت ضحكة عابثة عند هذه النقطة ، وقالت فى خبث :

– سنرى .

هتفت بها فى غضب :

– حذار يا (نرمين) .

صمتت لحظة ، بدا خلالها أنها تفكر فى عمق ، قبل أن تلوح بذراعها فى استهتار ، وتقول :

– حسناً يا (نسرين) .. سأتركه لك ، فأنا أيضاً لا أميل لذلك النوع من الرجال .

وأراحت عباراتها قلبى بعض الشىء ، وإن لم يفارقه القلق تماماً ، وعدت إلى الإسكندرية ، وإلى العجمى ، وقد بلغ منى الشوق مبلغه ، لرؤية (أكرم) ..

ولم أكد أصل ، وأبدل ثياب السفر ، حتى أسرعت إليه فى مكتبه ، وكان لقاؤنا عاطفيًّا حارًّا ، أعاد إلى

قلبى دفء الحب وحرارته ، ولكننى لمحت شيئاً ما يختبئ خلف مشاعر (أكرم) المتدفقة ..

كان هناك مزيج من الدهشة والحيرة والقلق ..

ولقد انتقلت هذه المشاعر إلى نفسى ..

صحيح أن حبى ، وفرحى ولهفتى لرؤيته قد كتموا هذه المشاعر فى أعماق ، ولكنها لم تمنعنى من الحيرة ، خاصة حينما ذهبنا لمشاهدة الغروب كعادتنا ، وأخذ (أكرم) يسألنى عن مشاعرى فى تردد ، وكأن هناك ما يريد مصارحتى به ، أو أنه يخفى شيئاً ما فى أعماقه ..

ثم بدأ يعود إلى طبيعته تدريجيًّا فى الأيام التالية ، وعدنا ننهل من نبع الحب ، وحياة الغرام ، كما كنا قبل أن أفارقه ..

ومن العجيب أنه لم يحاول أن يستوضح سر غيابى عنه طيلة هذه الأيام الثمانية ..

ومن الأعجب أننى لم أحاول ذكر ذلك ..

كانت الأيام تمضى بيننا فى هناءة ونعيم ، حتى أننى نسيت كل شىء ، ولم أعد أذكر سوى حبه فقط ..

وبدأت أشاركه حماسه فى عمله ، ورغبته فى التفوق والنجاح ..

وفجأة ، وقبل مضى الأسبوع ، عادت(نرمين) ..

عادت ساخطة ، ثائرة ، وقالت إنها لم تعد تحتمل ، وإنه تكفيها هذه الأيام الخمسة، ودار بيننا جدل طويل ، انتهى باضطرارى السفر إلى جدتى كالعادة ..

وبينما كنت أعد حقيبتى فى حنق ، سألتنى (نرمين) فى صوت مضطرب ، يخالف طبيعتها الساخرة :

– كيف حال (أكرم) ؟

أدهشنى ذلك الحنان المتسلل عبر نبراتها ، وأثار فى قلبى الخوف ، فغمغمت :

– إنه بخير .

صمتت طويلا ، وهى تراقبنى فى صمت ، ثم غمغمت :

– هل تعلمين أنه شاب رائع ؟

هتفت بها فى لهجة متوعدة :

– (نرمين) .. حذار أن ..

قاطعتنى فى صوت متهدج ، والحزن يطل من عينيها :

– اطمئنى يا (نسرين) .. لن أختطفه منك .

كان هناك شىء عجيب فى أسلوبها ولهجتها ..

لقد بدت لى مختلفة عن (نرمين) التى أعرفها ..

بدت لى أكثر رقة ، وأقل شراسة ..

وعاد قلبى ينبض فى قلق ..

ما الذى بدل (نرمين) هكذا ؟ ..

ما الذى بعث الرقة فى طبيعتها القاسية ؟ ..

وبرز الجواب فى رأسى ..

الجواب الذى أخشاه ، وأحاول كتمانه ..

لقد أحبت ..

الحب وحده هو القادر على انتزاع قسوتها وبرودها ..

هو وحده يمنح قلبها الدفء والحنان ..

وارتجف قلبى وهو يتساءل :

– هل تحب (أكرم) ؟ ..

حاولت أن أقرأ الجواب فى ملامحها وعينيها ولكننى عجزت ..

ولم أكد انتهى من إعداد حقيبتى ، حتى أتت (نرمين) فعلا زاد من قلقى ودهشتى ..

لقد احتضنتنى وقبلت وجنتى فى ود ، وهى تقول :

– صحبتك السلامة يا (نسرين) ..

وعدت إلى القاهرة والقلق يعصف بنفسى ، وذلك السؤال المخيف يتردد فى أعماق بدوى هائل ..

هل تحب (نرمين) (أكرم) ؟ ..

هل انتزعت منى الإنسان الوحيد ، الذى خفق له قلبى ؟ ..

وعاد ذلك الحلم يراود مخيلتى ، ولكن بصورة مختلفة ..

كنت أرى (نرمين) وقد تحولت إلى مثال للرقة والحنان ، وسيطرت على مشاعر (أكرم) تماماً ، وجذبته بشخصيتها التى تجمع بين الجرأة والمرح والرقة ..

وأرى (أكرم) وهو يطير معها فوق السحاب ، والحب يطل من كل خلجة من خلجاته ، وأنا خلفهما أبكى ، وأحاول أن أنبه (أكرم) إلى وجودى ، ولكنه لا يلتفت إلىّ ، بل يواصل لهوه ومرحه مع (نرمين) ..

وأخيراً أرى نفسى أهوى من حالق ، وأصرخ مستنجدة بـ (أكرم) ، وهو لا يسمعنى ، ولا يمدّ لى يد المساعدة ..

وأستيقظ من نومى فزعة ، وأبكى حتى مشرق الشمس .

وأخيراً مضى الأسبوع ، ولم أستطيع احتمال انتظار قدوم (نرمين) ، فأعددت حقيبتى ، وطلبت من إحدى جاراتنا رعاية جدتى ، وانطلقت فى أول قطار إلى الإسكندرية ..

كنت فى طريقى إلى شاطئ حبى ، دون أن أدرى ما ينتظرنى هناك .

ويا هول ما وجدت ..

* * *

١٤ ـ صدمتى ..

استقبلتنى والدتى فى دهشة ، حينما وصلت إلى العجمى فى الصباح الباكر ، وكذلك فعلت (نرمين) ، التى بدت شديدة الرقة ، على نحو أدهشنى ، وهى تحتضننى ، وتقبّل وجنتى فى سعادة ، وتهتف فى فرح :

ـ كم أوحشتنى يا (نسرين) .

وسألتنى والدتى فى قلق :

ـ ماذا حدث يا (نسرين) ؟ .. لماذا تركت جدتك ؟

هتفت فى حنق :

ـ لقد حان دور (نرمين) .

تطلعت إلىّ والدتى فى دهشة ، فى حين غمغمت (نرمين) فى صوت حنون حزين ، ضاعف من دهشتى حيال تبدلها العجيب :

ـ حسناً يا (نسرين) .. سأذهب .

وفى هدوء واستسلام يناقضان أسلوبها المعتاد ،

ذهبت تعد حقيبتها ، مما أورثنى شعوراً بالندم ، فذهبت إليها ، وقبّلت وجنتها ، وأنا أقول فى حب :

ـ حسناً يا (نرمين) .. سأعد أنا حقيبتك .

منحتنى ابتسامة وداً ، وبادلتنى قبلتى ، ثم تركت الحقيبة ، وخرجت إلى الشرفة ..

وبينما أنا أعـد حقيبتها فى حماس سقطت من جيب أحد قمصانها صورة ، جعلتنى أتجمد من فرط الدهشة ، وانحنيت ألتقطها ، وأنا أرجو أن تكون عيناى قـد خدعتانى ، ولكن قلبى لم يلبث أن خفق فى عمق ، حينما تيقنت أنها صورة (أكرم) ..

ظللت أحدق فى الصورة بذهول ، وأنا أتساءل عن سر وجودها فى ثياب (نرمين) ، ثم قلبتها فى تردد وانهارت أحلامى كلها ، حينما قرأت الإهداء المكتوب خلفها ..

« إلى حبيبتى (نرمين) مع .. حبى .. (أكرم) » ..

كلمات قليلة حطمت كل المشاعر فى أعماق ، إلا الألم والحزن ..

لقد أهدى صورته إلى (نرمين) ..

إذن فهو يدرك من يحب ..

وتدفقت الدموع من عيني كالشلال ، وانهمرت كالسيل ، وسقطت على طرف الفراش ، وأنا أخفي وجهي بين كفي وأنتحب في ألم ..

لقد نجحت (نرمين) ..

لم تكن أحلامي مجرد وهم ..

إنها حقيقة .. حقيقة ..

إن (أكرم) يحب (نرمين) ..

يحب توءمتي ..

يحب مرآتي السوداء ..

وأخذت أبكي وأبكي .. حتى سمعت صوت (أكرم) ، وهو يتحدث مع (نرمين) في شرفة الفيلا ..

أسرعت أجفف دموعي ، وتسللت على أطراف أصابعي إلى الشرفة ، حتى يمكنني سماع حديثهما ..

واختفيت خلف باب الشرفة ، واختلست النظر إليهما ..

ويا ليتني ما فعلت ..

لقد رأيت (أكرم) ، وهو يضم كف (نرمين) إلى صدره في حب ، ويقول في وله :

ـ أحبك .. أحبك يا (نرمين) .

ومادت بي الأرض ، وترنحت ، وخيل إلى أن السماء تظلم من حولي ، وأن الدنيا كلها قد تحولت إلى مرآة سوداء كبيرة ..

وسقطت فاقدة الوعي ..

لست أدري كم من الوقت ظللت هكذا ، ولكنني أفقت لأجد نفسي هنا ، في مستشفى الأمراض العصبية والنفسية ، أخضع لعلاج مكثف ..

وانتظرت قدوم (أكرم) لرؤيتي ..

انتظرت أن يأتي ويفسر لي ما رأيته ، وما سمعته ..

كنت سأقبل أي تفسير ، لأنني أحبه ..

كنت سأقبل أي شيء لو أنه جاء ..

ولكنه لم يفعل ..

حتى (نرمين) لم تأت لزيارتي ..

أمى وحدها تزورنى ، وتبكى على فراشى ، حتى أننى أتظاهر أمامها بالشفاء، حتى لا أحطم مشاعرها ..

وما زلت أنتظر (أكرم) .. أو (نرمين) ..

ولست أدرى إلى متى ؟ ..

إلى متى سأنتظر ؟ ..

* * *



١٥ ـ التحليل ..

جلس (حسنى) واجماً فى حجرة (مراد) ، يداعب ذقنه بأصابعه فى عصبية ، وينقر على المنضدة الموضوعة أمامه بأصابع يده الأخرى ، متجاهلا كوبى الشاى ، اللذين ظلا على حالهما، دون أن يمسهما أحد ، منذ ساعة كاملة ، إلى أن غمغم (مراد) :

ـ ما رأيك ؟

رفع (حسنى) إليه عينين حائرتين ، وقال :

ـ إن قصتها تبدو مقنعة .

ابتسم (مراد) ، وهو يقول :

ـ كيف ؟ .

صمت (حسنى) لحظة ، وكأنه يحاول ترتيب أفكاره ، ثم قال :

ـ قصة الأخت التوءمة أقرب إلى منطق ، من إصابة (نسرين) بانفصام الشخصية ، ثم إن قصة جدتها المريضة أمر يمكن التأكد منه بسهولة .

ابتسم (مراد) ابتسامه واسعة ، واثقة ، وقال :

— إنه جدار دفاعى يا صديق .

عقد (حسنى) حاجبيه ، وهو يغمغم :

— جدار دفاعى ؟ !

هز (مراد) رأسه فى وقار ، وأشعل غليونه الصغير فى هدوء ، ونفث دخانه فى عمق ، ثم قال :

— لقد روت لك نفس القصة التى روتها لى يا صديق ، ولكننى — بحكم دراستى — قرأت بين سطور قصتها ما لم تقرأه أنت .

ونهض من خلف مكتبه ، وسار فى أرجاء الحجرة فى هدوء ، وهو يستطرد :

— لو أنك لاحظت توقيت ظهور (نرمين) ، تلك التوءمة الوهمية ، للاحظت أنه يرتبط بالصدمة العصبية ، التى أصابت (نسرين) ، بعد وفاة والدها ، لقد فقدت بوفاته آمالها ، وأحلامها — على حد قولها — وبدأ عقلها الباطن يصارع لإيجاد وجه آخر للصراع ، يمحو من عقلها الواعى صدمة وفاة الأب ، ومن هنا

نشأت فى أعماقها شخصية (نرمين) ، تلك اللاهية العابثة ، التى تحمل قلباً بلا مشاعر ، والتى لا ولن يحطمها وفاة الأب ، وبدأ عقلها الباطن يختلق صراعاً وهمياً بين شخصيتيها ، وحوارات عاصفة ، واختلافات جوهرية ، ثم اختلق مرض الجدة ، ليعلل تأرجح (نسرين) بين شخصيتيها ، وعندما تعرفت (نسرين) (أكرم) ، نشأ فى أعماقها عالم جديد ، ألا وهو عالم الحب ، الذى حرك أولا مشاعر (نسرين) ، ثم انتقل إلى شخصية (نرمين) الوهمية ، نظراً لقوة الشعور ، وفسر عقلها الباطن مقابلاتها مع (أكرم) ، وهى فى شخصية (نرمين) ، على أنها نوع من الأحلام ، التى تراود خيالها ، حتى قاربت الشخصيتان الاندماج والامتزاج ، وهنا خيل إليها أنها كـ (نسرين) تتطلع إلى الموقف الذى دار بينها ، وهى فى شخصية (نرمين) وبين (أكرم) ، وتصارعت الشخصيتان فى أعماقها ، وفى عقلها الباطن ، فأصابها ذلك الانهيار العصبى ، الذى تعالج منه الآن .

استمع إليه (حسنى) فى اهتمام ، ثم هز رأسه فى حيرة ، وقال :

– ألا يمكن أن تكون مجرد أحلام فعلا ؟

ابتسم (مراد) ، وهو يقول :

– هل رأيت فى حياتك كلها أحلاماً بمثل هـذا الوضوح والصدق .

قلب كفيه فى حيرة ، وقال :

– يقولون إنه هناك رابطة روحية بين أى توءمين .

ضحك (مراد) ، وهو يقول :

– هذا إذا كان هناك توءم بالفعل .

ساد صمت ثقيل فى الحجرة ، بعد عبارة (مراد) الأخيرة ، قبل أن يقطعه هو ، قائلا :

– والآن ما رأيك ؟

غمغم (حسنى) فى حزم :

– إنها غارقة حتى أذنيها فى حب (أكرم) .

عقد (مراد) حاجبيه ، وهو يقول :

– ماذا تعنى بقولك هذا ؟

أجابه (حسنى) فى حماس :

– أعنى أن الأمل الوحيد فى شفائها ، هو أن تتزوج (أكرم) .

– قد يحطمه ذلك .

– ربما ، ولكن فراقهما سيحطم كليهما .

– لن يحتمل (أكرم) مرضها .

– حبه لها سيجعله يحتمل .

– ستصيبه بآلام نفسية رهيبة ، وهى فى شخصية (نرمين) .

– لن يبالى .

– العذاب الطويل يؤدى إلى الانهيار .

– والحب يصنع المعجزات .

مط (مراد) شفتيه عند هذه النقطة ، وقال :

– إننى أخالفك الرأى ، ولكن رأيينا لا قيمة لها ، فالمهم هو رأى (أكرم) نفسه .

فتح (حسنى) فمه ، وكاد ينطق بكلمة ما ، ولكن

تلك الكلمة لم تغادر شفتيه ، فقد سمع فى تلك اللحظـة صوت (أكرم) يقول :

– إننى أتفق مع (حسنى) يا (مراد) .

التفت الاثنان إلى حيث يقف (أكرم) بوجهـه الشاحب ، وهتف (حسنى) :

– لماذا أتيت ؟ .. ألم نتفق على أن .. ؟

قاطعه (أكرم) فى صرامة :

– يمكنك اعتبار اتفاقنا لاغياً يا (حسنى) .

ثم أغلق باب الحجرة ، وقال فى حزم :

– لقد كنت مخطئاً ، حينما قبلت نصيحتك يا (مراد) لقد شعرت بحقارة موقفى ، حينما كشفت كم كنت جباناً ، عندما فررت من هنا ، وتركت (نسرين) تواجه محنتها وحدها .

غمغم (مراد) :

– لم يكن وجودك ليفيد و ..

قاطعه (أكرم) فى حدة :

– كفَى يا (مراد) .. لن أستمع بعد الآن إلا لصوت عقلى وقلبى فقط .

ثم ارتسم الحزن فى عينيه ، وهو يستطرد :

– إننى أحب (نسرين) .. أحبها على أى نحو ، حتى ولو كانت مصابة بأمراض الدنيا كلها ، النفسية والعضوية ، بل إن إصابتها بهذا المرض تجعلها أكثر احتياجاً إلىّ ، ولن أتخلى عنها قط .

غمغم (مراد) :

– وماذا ستفعل ؟

أجابه (أكرم) فى حزم :

– سأتزوجها .

هتف (حسنى) فى دهشة :

– تتزوجها ؟

هتف (أكرم) .

– نعم يا (حسنى) .. سأتزوجها .

ثم لوح بذراعيه ، وهو يستطرد فى حنان :

– ما قيمة الحب لو أنه عجز عن مساندة المحب

فى محنته ؟ الحب يا صـديق ليس مظلة نحملها فى يوم صحو ، ونلقى بها فى يوم مطير ، بل إنه الأمان ، والحنان ، والقوة ، وسأتزوج (نسرين) ، وأمنحها كل حبى وحنانى ، حتى ولو كان احتمال شفائها لا يتجاوز الواحد فى المائة .

تبادل (حسنى) و (مراد) نظرات مشفقة ، فى حين سأل (أكرم) (مراد) فى حزم :

– ما رقم حجرتها يا (مراد) ؟

غمغم (مراد) :

– فكر فى الأمر أولا يا (أكرم) و ..

عاد (أكرم) يقاطعه فى صرامة :

– ما رقم حجرتها يا مراد ؟

أجابه (مراد) فى يأس :

– خمسة وأربعون .

تنهد (أكرم) فى ارتياح ، وقال :

– سأذهب إليها ، وسأرجوها أن تقبل اعتذارى وحبى .

ثم ابتسم ، وهو يردف :

– وأنا واثق أننى لن أندم أبداً .

وفى حركة سريعة ، فتح باب حجرة (مراد) ، وهمّ بالعدو نحو حجرة (نسرين) ، ولكنه توقف مشدوهاً ، وتعلقت عيناه بالغادة الرقيقة ، التى تقف أمام باب الحجرة ، وهتف فى صوت يموج بالسعادة والدهشة والحب :

– (نسرين) !!

تطلع (مراد) و (حسنى) إلى الفتاة بذهول ، فى حين امتلأت عيناها بالدموع ، وخفضت وجهها ، وهى تغمغم :

– لست (نسرين) يا (أكرم) .. أنا (نرمين) ، توءمتها .

* * *

١٦ - الحقيقة ..

كانت المفاجأة مذهلة ..

بل أكثر من مذهلة ..

لقد ظللنا نحدق فى وجه الفتاة فاغرى الأفواه ، قبل أن يهتف (مراد) :

- لقد أصابها المرض مرة أخرى .

ثم انفلت من مكانه ، وانطلق بخطوات سريعة ، متجاوزاً (أكرم) والفتاة ، ومغادراً الحجرة كلها ، فى حين أمسك (أكرم) كف الفتاة فى حنان ، وقال :

- (نسرين) ، حبيبتى .. لقد عدت إليك .. لقد ..

انهمرت دموع الفتاة ، وهى تقول :

- لست (نسرين) يا (أكرم) .. صدقنى ..

قادها فى حنان إلى مقعد قريب ، وربَّتَ على كتفها فى حب ، وهو يغمغم :

- لا بأس يا حبيبتى .. لا بأس .

لم تكد تجلس حتى عاد (مراد) ، وحدّق فى وجهها بذهول ، قبل أن يفوه بكلمات لاهثة :

- إنها ليست (نسرين) .. (نسرين) الحقيقية ترقد فى فراشها .

عاد (حسنى) و (أكرم) يحدقان فى وجه الفتاة بذهول ، وهتف (أكرم) :

- من أنت إذن ؟

أجابته ، وهى تطلق لدموعها العنان :

- قلت لك إننى (نرمين) .

ألقى جسده إلى جوارها ، وكأنما عجزت قدماه عن حمله ، وهو يغمغم فى ذهول :

- إذن فـ (نسرين) ليست مصابة بانفصام الشخصية .. (نسرين) و (نرمين) شخصيتان منفصلتان .

أومأت برأسها إيجاباً فى حزن ، وغمغمت فى ألم :

- نعم يا (أكرم) .. هذا صحيح .

انقلب الذهول فى ملامحه إلى غضب ، وأمسك معصمها فى قوة ، وهو يقول :

– لماذا خدعتنى ؟ .. لماذا ؟

انطلقت تبكى وتنتحب فى حرارة ، ولكنه كرر سؤاله فى عصبية ، فرفعت عينيها إليه ، وغمغمت :

– إننى لم أخدعك يا (أكرم) .. لقد أحببتك .. صدقنى .

غمغم (أكرم) فى حنق :

– الخداع والحب نقيضان .

تعلقت بذراعه ، وهى تقول فى ألم :

– ولكننى أحببتك .. صدقنى .

أزاح يدها عن ذراعه فى حيرة ، ونهض من مقعده ، وهو يقول فى صرامة :

– لماذا فعلت ذلك ؟

أطرقت برأسها ، وعادت عيونها تمتلىء بالدموع ، وهى تقول :

– هل تعاقبنى لأننى أحببتك ؟

هتف فى غضب :

– لقد حطمت شقيقتك بلا رحمة من أجل حبك هذا .

غمغمت فى ألم :

– لقد فعلت هذا من أجلك .

صاح بها فى قسوة :

– وأنا أرفض هذا .

تدخل (مراد) ، قائلا :

– رويدك يا (أكرم) .. (نرمين) تعانى ألماً شديداً .

نظرت إليه (نرمين) فى امتنان ، ثم عادت تطرق برأسها ، وتقول فى حزن :

– سأشرح لكم كل شىء ، سأقص عليكم كل ما حدث ..

وانطلقت تروِى ..

* * *

١٧ ـ الوجه الآخر للعملة ..

نشأت منذ طفولتى فى مجتمع ، تختلف تقاليده تماماً عن مجتمع مصر ، ونموت وسط أسرة صغيرة للغاية ، هى والدى فحسب ، وحتى هو لا يمكن اعتباره أسرة بالمعنى المفهوم ، فهو لم يكن يمنحنى أى قدر من الاهتمام ، ويكتفى بالإنفاق علىّ فى سخاء ، ثم يتركنى لمجموعة من المربيات السويسريات ، اللاتى اهتممن بتنشئتى طبقاً لتقاليد ذلك المجتمع ، ولولا حديث أبى القصير ، الذى كان يتبادله معى يومياً ، قبل انصرافه إلى أعماله المتعددة ، ما استطعت التحدث بالعربية قط ..

وطوال إقامتى مع أبى فى (سويسرا) ، لم يشر قط إلى أمى أو شقيقتى التوءمة (نسرين) ، حتى أننى لم أعلم عنهما شيئاً ، إلا بعد وفاته ، حينما سلمنى محاميه خطاباً منه ، وأبلغنى فى أسف أن والدى قد خسر كل ثروته ، بسبب مداومته على لعب القمار ، ومضارباته الجنونيـة فى بورصة الأوراق المالية ..

ووجدت نفسى فجأة أمام مفاجأتين ، أولهما أننى مفلسة تماماً ، وثانيهما أن لى أسرة تعيش فى مصر ، وبعملية حسابية بسيطة ، وجدت أنه ليس أمامى إلا العودة إلى مصر ، والعيش فى كنف هذه الأسرة ..

ولقد كان لقائى مع والدتى وشقيقتى مدهشاً ، فلقد استقبلتنى والدتى فى لهفة وفرح عارمين ، واستقبلتنى (نسرين) بسعادة غامرة ، ولكن أكثر ماأدهشنى فى هذا اللقاء هو ذلك التشابه المذهل بينى وبين (نسرين) ، والذى جعلنى أقارن بيننا على نحو تلقائى ..

وبمرور الوقت اكتشفت أننا نختلف تماماً ، باستثناء الشكل الظاهرى ، ولقد أثار هذا الاختلاف الجذرى دهشتى وفضولى فى البداية ، ثم لم ألبث أن اتخذته مثاراً للتندر والسخرية ، وبذلت جهداً كبيراً لإتقان اللهجة المصرية ، وإخفاء تلك اللكنة الأجنبية فى صوتى ، حتى نجحت فى التحدث بأسلوب (نسرين) ولهجتها تماماً ، وبدأت أستغل ذلك التشابه فى العبث واللهو ، لتمضية وقتى فى مصر ..

وكنت طوال الوقت أعتبر أمى وشقيقتى ساذجتين ، فلقد تعمدت منذ وصولى إخفاء أمر إفلاس والدى عليهما ، ولكن إحداهما لم تحاول سؤالى عن ثروته أو ميراثهما منه ، وكان هذا بمقاييس المجتمع الأوروبى ، الذى نشأت فيه ، سذاجة ..

وبمرور الوقت تحول هذا العبث إلى نوع من العناد ، مما أنشأ كراهية مشتركة بينى وبين (نسرين) ، وكانت هذه الكراهية نفسها تدفعنى لمزيد من العبث واللهو ..

حتى ظهر (أكرم) فى حياتى ..

عندما التقى بى لأول مرة ، فهمت على الفور أنه يظننى (نسرين) ، وراقت لى وسامته فقررت أن أتخذ من ظنه أننى (نسرين) مثاراً للعبث واللهو ، وتمضية الوقت ، ولكننى فوجئت به يصدنى فى صرامة وحدّة ، ويؤكد لى فى كل مرة أنه يحب رقة (نسرين) وحنانها ..

ولقد شعرت بسعادة شريرة ، حينما رآنى أراقص أحد الشباب ، وانصرف غاضباً ، فقد تصورت أنه سيكره (نسرين) بعد ذلك تماماً ، وتجاهلته بعد ذلك

بضعة أيام ، وأنا أظن أنه سيعود ليعتذر ..

ولكنه لم يفعل ..

وكان هذا مفاجئاً لى ، فقد اعتدت من كل الرجال ، فى ذلك المجتمع الأوروبى ، أن يزحف الواحد منهم خلف المرأة التى يحب ، مهما فعلت به ..

وبدأت أعيد تقييمى للأمور ..

وعندما عدت إلى القاهرة لرعاية جدتى ، امتلأ عقلى بصورة (أكرم) ، وكشفت أننى أحبه ..

أحبه من أعماق قلبى .

ولم أحتمل قضاء الأسبوع كله بعيداً عنه ، فهرعت إليه بعد خمسة أيام ، واستطعت إقناع (نسرين) بالسفر إلى القاهرة ، ثم ذهبت إليه ، وقد قررت إيقاعه فى حبى ، مهما كان الثمن ..

ولكن (أكرم) كان غارقاً حتى أذنيه فى حب (نسرين) ، وكان يكره أسلوبى تماماً ، مما جعلنى أنهار باكية ..

وغمرنى هو بحنانه ، وأيقظ فى أعماقى دفئاً من

مشاعر ، كنت أظننى لا أمتلكها مطلقاً ، وقبل أن أصدق أنه يحبنى ، عاد يخاطبنى باسم (نسرين) ..

وثارت مشاعرى ، وامتلأت بالغضب ، وانطلقت من أمامه هاربة ، وأنا أبكى ألماً ..

لماذا يحب (نسرين) ؟ ..

فيم يفضلها عنى ؟ ..

وفى هذه الليلة سبحت فى بحر من الدموع ، وتكشفت لى حقيقتى الشريرة ، وتبينت أننى مجرد صورة فى مرآة سوداء لـ (نسرين) ..

وفى تلك الليلة أيضاً حدثت المعجزة ..

لقد اغتسلت فى نهر دموعى ، وطهرنى ذلك من شرورى ، ورغباتى السيئة ، وشعرت وأنا أستيقظ فى اليوم التالى ، أننى مخلوقة أخرى ..

مخلوقة تمتلئ بالحب والحنان والرقة ..

وقررت أن أصارح (أكرم) بحقيقة الأمر ، وعليه هو أن يختار ..

إما أنا ، أو (نسرين) ..

ويبدو أن دموعى كانت مطهراً رائعاً ، فلقد انتابنى شعور بالإثم ؛ لأننى أحاول خطف (أكرم) من (نسرين) ..

وحاولت أن أصده فى اليوم التالى ، ولكننى لم أستطع ..

كلماته الحانية جعلتنى أعجز عن أن أصده ..

وعادت رغبتى القوية فى الاعتراف ، فصحبته إلى الشاطئ ، ولم يكد يخاطبنى باسم (نسرين) حتى انتابنى الغضب ، وانطلقت أقول له الحقيقة ..

حقيقة أننى (نرمين) ، ولست (نسرين) ..

ولكنه بدا وكأن ذلك لم يفاجئه ..

وكأنه كان يعلمه منذ البداية ..

وقال إنه يحبنى ..

أنستنى عبارته كل شئ ..

أنستنى (نسرين) ، ورغبتى فى التطهر ..

أنستنى حياتى كلها ..

وكدت أطير فرحاً ، حينما أعطانى صورته ، وكتب الإهداء خلفها باسمى ..

كنت أسعد مخلوق فى الوجود ..

ثم عادت (نسرين) وأصابها ذلك الانهيار العصبي ..

لقد أدهشتني حالتها في البداية ، ولكنني لم أكد أرى صورته الملقاة فوق الفراش ، حتى استنتجت كل شيء ، وعلمت أنني السبب فيما أصاب شقيقتي ..

وانهارت مشاعري ..

ظللت أبكي طيلة اليوم ، وتركت أمي تهرع بـ (نسرين) إلى المستشفى ، وأنا أخشى رؤيتهما ..

وكرهت نفسي ..

كرهت ذلك الشر القابع في أعماقي ..

ولم أستطع رؤية (نسرين) طوال الأيام الأربعة الماضية ، خوفاً من أن أنهار إلى جوارها ، وأعترف بذنبي كله ...

واليوم .. اليوم فقط ، نجحت في استجماع شجاعتي ، وأتيت هنا لأعترف ، عسى أن يطهرني الاعتراف ، ويضيء مرآتي السوداء ..

وهأنذا أعترف ..

* * *

١٨ - شمس الحب ..

ران صمت عميق على جو الحجرة ، بعد أن انتهت (نرمين) من قصتها ، ولم يكن يقطع هذا الصمت إلا صوت بكائها المكتوم ، حتى تنهد (أكرم) في قوة ، جعلت الجميع يلتفتون إليه ..

ولقد أدهشهم ذلك التبدل المفاجئ في ملامحه ..

لقد زال شحوبه ، وأشرق وجهه بالارتياح ، وتألقت عيناه بالسعادة ، ولقد استقبل نظراتهم الدهشة بابتسامة عريضة ، وهو يقول :

- حمداً لله ، لقد اتخذت قراري بالعودة إلى (نسرين) ، قبل أن أستمع إلى قصة (نرمين) ، وإلا لظل الشعور بالذنب يراودني طيلة عمري .

رفعت (نرمين) إليه عينيها الدامعتين ، وغمغمت في حزن :

- اذهب إليها يا (أكرم) .. أنا لا أصلح لك .

تطلّع إليها (أكرم) في عطف ، ثم اقترب منها ،

وَرَبَّتَ على كتفها فى حنان ، وهو يقول :

ــ لقد قمت بعمل عظيم يا (نرمين) .

غمغمت فى ألم :

ــ لم يكن ذلك سهلا .

ابتسم وهو يقول :

ــ أعلم ذلك .

نهضت (نرمين) فى بطء ، وتطلعت إلى عينى (أكرم) ، وهى تقول :

ــ سأذهب .

سألها فى هدوء :

ــ إلى أين ؟

هزت رأسها فى حيرة ، وقالت :

ــ لست أدرى ، ولكننى أظن أنه من المحتم أن أذهب .

ابتسم (أكرم) فى إشفاق ، وقال فى حنان :

ــ ربما كان هذا صحيحاً بالنسبة للمجتمع الأوروبى ، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لمصر ، فنحن

هنا نقدس روح الأسرة ، ومهما كان من الأمر ، فستظلين أبداً شقيقة (نسرين) .

وتردد لحظة ، قبل أن يستطرد :

ــ وشقيقتى .

ارتجفت خلجاتها فى انفعال ، وهى تتطلع إليه ، ثم أطرقت برأسها ، وغمغمت :

ــ هل غفرت لى ؟

هتف فى حماس صادق :

ــ بالطبع .

عادت تسأله فى أسى :

ــ وهل تعتقد أن (نسرين) يمكنها أن تغفر ؟

ابتسم فى حنان ، وهو يقول :

ــ أنت تعلمين كم هى رقيقة حانية .

ارتفع حاجبا (نرمين) فى حنان ، ثم انهمرت دموعها ، وهى تهتف فى مرح :

ــ سأعود إلى الفيلا .. سأعد لكما حفلا رائعاً ، وسأستقبلكما عندما تعودان معاً .

ثم أسرعت إلى باب الحجرة ، وفتحته فى لهفة ، واستدارت قبل أن تغادرها ، وهى تقول فى سعادة :

— معاً يا (أكرم) .

منحها (أكرم) ابتسامة عذبة ، فتألق وجهها بابتسامة مماثلة ، وأغلقت الباب خلفها ، وتسلل إليهم صوت خطواتها المرحة ، وهى تبتعد بسرعة ..

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن يهتف (حسنى).

— يا لها من قصة عجيبة !!

ثم التفت إلى (مراد) ، وسأله :

— ما رأيك ؟

ابتسم (مراد) ابتسامة خجلى ، وهو يغمغم :

— رأيى أنه لا بد لى من إعادة قراءة كل ما درسته فى الطب النفسى يا صديقى .

ضحك (حسنى) فى مرح ، والتفت إلى (أكرم)، وسأله :

— وأنت .. ماذا ستفعل ؟ !

أشرق وجه (أكرم) بابتسامة صافية ، وارتفع

حاجباه فى حنان ، وهو يقول فى عاطفته المتأججة :

— هل تسألنى ؟

ثم غادر الحجرة فى هدوء ، وأغلق بابها خلفه ، فاعتدل (مراد) ، وسأل (حسنى) فى اهتمام :

— إلى أين سيذهب ؟

ابتسم (حسنى) فى حنان ، وقال :

— يا لك من طبيب نفسى فاشل !! ألا تعلم إلى أين سيذهب ؟

ابتسم (مراد) ، وهو يتراجع ليستند إلى ظهر مقعده ، وهو يقول :

— لقد أردت اختبارك أنت ، فأنا أعلم أنه سيذهب إليها .. إلى (نسرين) .

وفى نفس اللحظة ، التى نطق فيها (مراد) بعبارته ، كان (أكرم) يعبر باب حجرة (نسرين) فى هدوء ..

وكانت (نسرين) تبدو كحوريات الجنة ، فى ثوبها الأبيض الفضفاض ، وشعرها الأسود الفاحم ، الذى ينسدل ناعماً على كتفيها ، وهى تجلس على مقعد

أمام نافذة حجرتها ، وتتطلع إلى الأفق ..

واقترب منها (أكرم) فى هدوء ، ووضع يده على كتفها فى رفق وحنان ، وهو يهمس :

— (نسرين) .

تجمدت فى مكانها لحظـــة ، ثم أدارت عينيها إليه فى بطء وكأنها تخشى أن يكون صوته مجرد حـلم ، يراود خيالها المتلهف لرؤيته ..

والتقت عيونهما ..

ارتفع حاجبا (نسرين) فى مزيج من الفرح والحنان والحب ، وهى تحدّق فى وجه (أكرم) ، الذى ابتسم فى حنان دافق ، ومد يده يتحسس شعرها الأسـود ..

وترقرقت عينا (نسرين) بالدموع ، وأمسكت كف (أكرم) ، التى ترتفع إلى شعرها ، واحتضنتها فى دفء وسعادة ، وهى تهمس فى فرح :

— (أكرم) ؟ أهو حلم ؟

همس فى حنان :

— بل حقيقة يا (نسرين) .

ارتفعت يدها الأخرى فى لهفة ، تتحسس وجهه فى فرح وسعادة ، وشعر بارتجاف أناملها ، وهى تتلمس وجهه، فرفع كفها إلى شفتيه ، وقبلها بكل ما يعتمل فى أعماقه من حب ، وحنان ، وهو يقول :

— لقد عدت يا (نسرين) .. عدت ولن أتركك أبداً .

سالت دموع الفرح من عينيها ، وهى تهمس :

— (أكرم) .. أنا .. أنا ..

همس هو فى حنان :

— أنا أحبك يا (نسرين) .

استندت برأسها إلى جسده ، وهى تهمس :

— أنا أيضاً أحبك يا (أكرم) .

أطرق بوجهه فى خجل ، وهو يغمغم :

— أعتقد أننى أدين لك بتفسير ، لقد ..

أوقفته بلمسة حانية من أناملها الشفوية ، وهمست فى حب :

— ليس الآن يا (أكرم) .. اتركنى أرتوى برحيق

هـذه اللحظات ، وسيكون أمامنا العمر كلـه لنتحـدث فيما مضى :

ثم أشارت عبر النافذة ، وقالت :

— انظر .. إنه موعدنا يا (أكرم) .. إنه غروب الشمس .

رفع عينيه يتطلع إلى قرص الشمس الغارب ، ثم عاد يتطلع إلى وجهها الجميل الرقيق ، وهو يهمس فى حب :

— بل هو الشروق يا حبيبتى .. شروق شمس حبنا ، التى لن تغرب أبداً ، وعاد يحتضن كفها فى حب وحنان .. وتحطمت المرآة السوداء ..

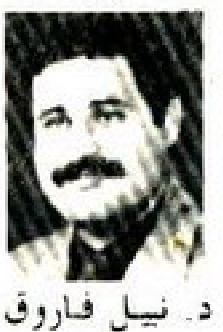
[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٧٨٤٨

زهور

— سلسلة رومانسية رفيعة المستوى —

المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



المرآة السوداء

التقى (أكرم) بـ (نسرين) على شاطئ العجمى بالإسكندرية ، ولم يلبث الحب أن نسج خيوطه حول قلبيهما ، ثم ظهرت (نرمين) ، التى حاولت انتزاع (أكرم) من قلب (نسرين) .. فلمن يكون هذا القلب المحب ؟.. لـ (نسرين) .. أم (نرمين) ؟ ، أم يتحطم فى قلب المرآة السوداء ؟

الثمن فى مصر
ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم